القرآن
الطبعة الأولى
1416 هـ - 1995 م

بيت بحسين بن طهنه ميمون

دار الشروق

©

القاهرة 16 شارع حداد حسني - هاتف 29436488
فاكس 2938418
ف.اكس.إم تكس 021 0717128177
فاكس 886859
فاكس 0211589
فاكس 61705584 - تكس
مقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قبيلاً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسناً ما كثين فيه أبداً.

أجله على قديم إحسانه، وتواطع نعمة، حمد من يعلم أن مولاه الكريم علماً ما لم يكن يعلم وكان فضل عليه عظيماً.

وأسألني المزيد من فضله، والشكر على ما تفضل به من نعمة، إنه ذو فضل عظيم، وصل الله على سيدنا محمد عبده ورسله ونبيه وأمينه على وجهه وعباده صلاة تكون له رضا ولنا بها مغفرة وعلى آله وصحبه آجمعين وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد، فإن الله عز وجل أنزل القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلم وأعلمه فضل ما أنزل عليه، وأعلم خلقه في كتابه وعلى لسان رسوله أن القرآن عصمة لمن اعتصمه به وهدى له إهتدى بهبه، وغنى لمن استغني به، وحزز من النار لمن اتبعه، ونور لمن استنار به، وشفاء لما في الصدور وحذوى ورقة للمؤمنين، ثم أمر الله خلقه أن يؤمنوا به ويعملوا ببحكمه فيحلوا خلاله ويجرووا حرمه، ويؤمنوا بمشاربه ويعتبروا بأعماله ويقولوا ( آمنا به كل من عند ربنا) وهو...
هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان جمع فأوعى، وأكمل فاكتمل ودلل فأجز، وبشر فألزم، فهو كتاب عقل ومنطق، ودستور كامل يربط بين الخالق والمخلوق بأدعتم رباط، ويصل بين الدنيا والأيّرة بأكمل صلة.

وفي القرآن عموميات وخصوصيات، فعمومياته سائر الآيات وخصوصياته حروف، إما مفردة، وإما مرتبة على سبيل الإجاز، وهو نسق عجيب فريد حيث راعى في نظمه الطريقة النفسية والطريقة اللسانية، وكلما ازداد الفكر البشري تقدمًا ونضجاً، وصرابت، وسجلت له أحداث الكون وتجاربه نقاطاً جديدة في الخط العاليم، في الحق الإنساني أدرك من حقائق القرآن ما لم يدرك من قبل، وهذا كان القرآن سجلاً جمع ما تتوقف عليه الهدية من المعارف وحقائق الكون.

ومن أسرار إجاز هذا القرآن أن معارفه لا تنفد ولا تنتهي فهو مبعث كل بحث أو كشف؛ لأنه يصدر عن معرفة الخالق العليم القادر، وهو الكتاب الحرام والرسالة الحائدة التي اندرجت فيها سائر الرسالات، ولا صلاح لآخر هذه الأمة إلا بيا صلح فيه وأوّلاً ولا سبيل إلى السعادة في الحياتين إلا باتباع هديه، نزل بحرف قريش الذي استقطب لهجات العرب، واستوجب لغات العجم في استعماله قريش من الألفاظ ذاع وشعاع وما استهجهه انتحر وضاء، فهي دائرة متسعة، وحلقة متصلة لا يدري أين طرفاها! لأنهم جاوروا البيت الحرام فكانت تفعّل إليهم القبائل على تنوعها، ويخاطبون فيختران من كل لغة فضحاها، ومن كل وجه أحسره فنجوا فصاحاً صباياً، ولو أن تثبت تاريخ المعلقات التي كانت تتعلق في الكعبة بأمر قريش لعلمها أنها مكتوبة بحرفها الذي شمل معظم الأحرف، إن لم يكن كلها، فاستحالت بجدارة أن ينزل القرآن بحرفها.

نزل القرآن الكريم بمكة والمدينة في حوالي ثلاث وعشرين سنة منجها وفقاً
للظروف، وما تتطلبه الأحكام ويحتاجه الأدام لبناء الدولة الحديثة التي قوامها الكتاب والسنة في جو بلاغي عظيم تسارع إليه أدى كتاب الوحي مسجلة ما ينزل من السياء على قلب الأمين بلسان جبريل، ثم يلقى النبي صلى الله عليه وسلم بين الآذان الصاغية والقلوب الوعائية، فتنتشر صدورهم وتنفس أفئتهم ويدخلون في دين الله أفواجاً، ثم يهتفون للعمل بمحكمه، والإيابان بمشاببه، والاعتبار بأمثاله قائلين: (آمنا به كل من عند رينا) فذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة. فلله مزيد الحمد أولاً وآخراً.

المؤلف
من فضائل القرآن

قال الله عز وجل: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ (1) وحبل الله هو القرآن الكريم.

وفي حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم: ﴿لا كتاب الله ﴿في نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، هو الفصل ليس بالهلزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن أتغفى الهدى في غيره أضل الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تريع به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشيع منه العلماة، ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجنة إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إنا سمعنا قرآناً عجاباً يهدى إلى الرشد فآمنا به﴾ (2) من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم﴾ (3). ﴿(4) وقال تعالى: ﴿أُفَلَا يَتْبَعُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أُفْقَاهَا﴾ (5) قال محمد

(1) آية 103 من سورة آل عمران.
(2) آية 101 من سورة آل عمران.
(3) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن بباب ما جاء في فضل القرآن 2 / 245.
(4) آية 44 من سورة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.
ابن الحسين : (1) ألا ترون رحكم الله إلى مولاكم الكريم كيف يتح خلقه على أن يتدبروا كلامه، ومن تدبر كلامه رفع ربه عز وجل، وعرف عظيم سلطانه وقدره، وعرف عظيم تفضله على المؤمنين، وعرف ما عليه من فرض عبادته فألزم نفسه الواجب فحذر مما حذره مولاه الكريم ورغب فيها رغبه فيه، ومن كانت هذه صفته عند تلاوة القرآن عند استياعه من غيره كان القرآن له شفاء فاستغنا بلال، وقرأ بلال عشيرة وأنس بما يستوحش منه غيره، وكان همه عند التلاوة للسورة إذا افتتحها: متى أتبعها بها أثنا؟ ولم يكن مراده متى أخم السورة؟ وإنما مراده متى أعقل عن الله الخطاب؟ متى أذجر؟ متى أعتبر؟ لأن تلاوته للقرآن عبادة والعبادة لا تكون بغلة والله الموفق.

وفي قوله تعالى: فتلونه حق تلاوته قال معاذ: يعملون به حق عمله.

فصل حمل القرآن

عن أسن بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله أهلين قبل من هم يارسل الله؟ قال: أهل القرآن هم أهل الله وخاصته. (2)

وحلة القرآن أشرف هذه الأمة، وقراء القرآن ومقرؤه أفضل أهل هذه الملة، والدليل على هذا ما أخرجه الطبري في المعجم الكبير من حديث الجرحاني.

(1) أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآخرى

(2) الحديث أخرجه ابن ماجه، المقدمة باب فضل من تعلم القرآن وعلمه 242.
عن كامل أبي عبد الله الراسمي عن الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أشرف أمتي حملة القرآن".

وروى البيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاثة لا يكترون للحساب ولا تلقؤهم الصيحة ولا يجزؤهم الفزع الأكبر: حامل القرآن يؤديه إلى الله تعالى يقدم عليه بيدها شرقيًا حتى يرافق المرسلين، ومن أدنى سبع سنين لا يأخذ عليه أذانه طمعًا، وعبد ملوك أدى حق الله من نفسه وحق مواليه".

وروى الطبراني بإسناد جيد عن حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خيركم من قرأ القرآن وأقرأوه". وروى البخاري والترمذي وأبو داود عن عثمان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خيركم من علم القرآن وعلمه".

وفي جامع الترمذي من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقول الله عز وجل: "من شغله القرآن عن ذكرى ومسائلة أعطيه أفضل ما أعطى السائلين".

وخرج البيهقي: "أفضل عبادة أثني قراءة القرآن". وقال ابن عباس: "من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر لكيلًا يعلم من بعد علم شيئا".

(1) مجمع الروايد ج17 كتاب التفسير باب منه في فضل القرآن ومن قرأه ص161 وقال الحافظ المهني: "رواه الطبراني وله مسند سنيد الجرجاني وهو ضعيف أه.
(2) جامع الصغير في أحاديث البصير النظير 1/150.
(3) جامع الجواهر للسيطي 2 من السنة القرآنية العدد 15 ص858 مجمع البحوث بالأزهر.
(4) صحيح البخاري 6/9 التفسير: خيركم من تعلم القرآن وعلمه ص231.
(5) صحيح الترمذي ج11 أبواب ثواب القرآن ص47 عن أبي سعيد الخدري.
(6) الفتح الكبير في ضم الزيادة إلىجامع الصغير 1/2171.
رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (5) من قرأ القرآن ورأى أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظمه الله (1) وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (5) من جمع القرآن فقد أدرجت النبوة بين كتبه إلا أنه لا يوحى إليه (2) والأخبار في هذا المعنى كثيرة والمراد الاختصار والإيجاز.

وفي ختام هذا البحث أقول محبى قراءة القرآن قد ذكر الله تعالى أوصافاً كثيرة للقرآن تتعلق بحامله من الخير والثواب، وما أعد لهما في العقبي والمنآب. ولو لم ينزل في القرآن في حقهم إلا قوله تعالى: (3) ثم أورثنا الكتاب (3) الآية لكان في ذلك كفاية لهما.

---

(1) مجمع الروايات 7 ك الفسير بفصل القرآن ص 159 عن عبد الله بن عمر مرفوعًا وقال الحافظ الميسي: رواه الطبراني وفيه إسحاق بن رافع وهو متروك.
(2) المرجع السابق.
(3) آية 22 من سورة فاطر.
القرآن الكريم

القرآن ما نقل بين دفتى المصحف نقلاً متوارياً وعرفه بعضهم قائلًا:

الكتاب هو القرآن المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم المكتوب في دفات المصحف المقول إلينا على الأحرف السبعة نقلاً متوارياً.

وزاد بعضهم: المقول إلينا نقلاً متوارياً (بلا شبهة) فأخرج بالمتوارٍ القراءات التي تثبت بالأحاديث لأنه música دول الموتار لا يبلغ مرتبتة العيان، ولا يوجب الإيقان، وكلام الله تعالى ما أوجب علم اليقين لأنه أصل الدين، وهب ثبت الرسالة، وقامت الحجة على الضلالات (وبدلاً شبهة) خرج المشهور وهو ما كان أحاذ الأصل المتوار الفرع، كحديث: إنما الأعمال بالنيات.

الذي رواه أمير المؤمنين عمر وحده ثم تأثر جامعه عن جامعة.

وقالت جامعة: القرآن هو الكلام المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم للإعجاز بسورة منه. فخرج الكلام الذي لم ينزل، والذي نزل لا للإعجاز كسائر الكتب السماوية. قال الجبري القرى: كلام الله تعالى قديم مكتوب محفوظ مكتوب.

وعل التعريف الجامع المانع هو قول القائل:
القرآن كلام الله المعجز المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين بوساطة جبريل عليه السلام، المكتوب في المصاحف، المقول إلينا بالتوقيع، المعد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة المختتم بسورة الناس."
فَصِّلْنَ (في تاريخ الم الصحيح)

روى البخاري في صحيحه عن عبيد بن السباق أن زيد بن ثابت قال:
أرسل إلى أبو بكر رضي الله عنه مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه. قال أبو بكر: إن عمر آتيني فقال: إن القتل قد استحمر يوم اليمامة بقراء القرآن وأنا أخشى أن استحمر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن. وإن أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف فعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: هو والله خير. فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدرى لذلك. ورأيت في ذلك الذي رأى عمر.
قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهكم، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن واجعه. فوالله لو كلفني بنقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليه مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدرى للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر. فتبتعت القرآن أجمعه من العسب (1) واللخاف (2) وصدر

(1) العسب جريد النخل المستقيم الرقيق يكشف خوصه.
(2) اللخاف: حجارة عريضة رقيقة بيضاء.
الرجل حتى وجدت آخر سورة براءة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم ... الآياتن) (1). حتى خاتمة براءة وكانت الصحف عند أبي بكر إلى أن توفى الله ثم عند عمر حيته ثم عند حفصة بنت عمر.

وروى البخاري أيضًا في صحيحه عن ابن شهاب أن أنس بن مالك رضي الله عنه حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق وأقزح في حذيفة اختلافهم في القراءة (2). قال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسل إليها بالصحف نسخها في المصاحف ثم نزدها إلىك. وأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرهبان القرشيين الثلاثة: إذا اختلتم أتمن زيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبه بسما قريش فإنها نزل بسما ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بها سواء من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

قال ابن شهاب: وأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت أنه سمع زيد بن ثابت قال: فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف. قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها فاتمتنها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت

(1) آخر النواة: الآياتن 128، 129.
(2) كان الاختلاف في القراءة فيها نسخ قبل العرضة الأخيرة وفي مثل مصحف ابن مسعود ابن أبي لا في القراءات القرآنية.
الأنصار (1) من المؤمنين رجل صدقا المعاصر لنا قريباً بالقول في سورة المتقدم (2). قال العلاء الجبري عند قول الشاطبي في عقيلة أثر القصائد حين تعرض لكنية المصاحف التي نسخت عند قوله:

وسار في نسخ منها مع المدنى
كوف وبصر البصر
قبل مكة والبحرين مع يمن
ضاعت بها نسخ في نشرها قطراً

الكثيرات: ين فيها عدد المصاحف التي استنسخها عثمان رضي الله عنه ومقاربها ونسبتها باعتبار ما آلت إليه، وسير المدنى من موضع نسخة إلى مقره وجمعها ثانية: خمسة متفق عليها وثلاثة مختلف فيها.

قال أبو عزرى: أمر عثمان رضي الله عنه زيد بن ثابت أن يقرئ بالمصحف المدنى Workbook مع عبد الله بن السائب المكي وعمر بن عبد الرحمن السلمي الكوفي، وعمر بن عبد قيس مع البصري وبيع مصحفًا إلى اليمن وآخر إلى البحرین ولم نسمع لهما خبراً، ولا علماً من

(1) لا يلفظ القرآن الكريم أن هذا من خبر الواحد، فإن هذه الآية من سورة الأحزاب والآتي من سورة يهود كانت مكتوبة في مصحف أبي. وهذا هو الشاهد الثاني بعد خزيمة ثم إن هذا الصحابى الباجي قد منحه رسول الله صل الله عليه وسلم أن شهادته تعدد شهادة رجلين وذلك بمحضر من الصحابة على إثر حادثة شهد فيها مع رسول الله صل الله عليه وسلم حينها تذكر النبي صلى الله عليه وسلم حجة ضد خصمته وقال يرسول الله إن نحن نصدلك في خير السياق ألا نصدلك في أمر من أمر الدنيا؟ فأثر النبي شهادته بعد أن نبه أن لا يشهد إلا من رؤية غيبة وأشار صلى الله عليه وسلم إلى الشمس وقال له: وعلى مثلها فالله له، وذلك أخطأ جيد.

(2) الأحزاب: 26.

(3) فتح البازى شرح صحيح البخارى 8/ 277 ط الريان.

17
نفذ معها، وهذا انتصر الأئمة السبعة في الأعصار الخمسة. وإنها كتب عثمان هذى المساحف لإدراك ما وقع عليه إجماع الصحابة إلى أقطار بلاد المسلمين. كما كتب هذه المساحف مشتملة على الأحرف السبعة) وعلى لغات قومية على اختلاف الأزاء في الأحرف السبعة (1) قالت: وقد توصل التفسير من الجلالة إلى أن حرف عمر رضي الله عنه لم يكن من سوى ذهب كثير من أحرف القرآن السبعة المحفوظة في الصدور. إذا مات حمة القرآن أو يذهب كثير من صاحب القرآن المكتوب بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم أو ضياع الرسم القرآنى بضياع كتبه (2).

يقول العلامة ابن تيمية في فتاويه:

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن لا يشكي أحد أصحابه في كلمة منه أو حروف من حروفه، بل نذر القرآن به وشاع في أنحاء الجزيرة العربية وتدارسه أهلها. كلهم يتلقى ما يقرؤه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن أحد من أصحابه. وفي ذلك يقول: صاحب تنزية القرآن: «إن سبعين رجلاً أو سبعين ألفاً لو ذهبوا من حفظه في ذلك الوقت لم يكن شيئاً مذكرًا (3).»

أما جمع القرآن الثاني فقد كان المقصد منه جمع الأمة على وجه القراءات المتزامنة الصحيحة، وإلغاء ما ليس كذلك بتحريك أو تغريق في حضر من أجمل الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

يقول مصعب بن سعد: أدرك الناس متواضفين حين حرق عثمان المساحف فأعجبهم ذلك وقال: لم ينكر ذلك منهم أحد (4).

(1) شرح العقبة في لوحة رقم 53، مكتبة الأزهر، قراءات.
(2) انظر جمع القرآن للشيخ العبادي، رسالة دكتوراه ص 36-57.
(3) تنزيل القرآن ص 41.
(4) المصاحب للسجستاني ص 12.
الشكل بطرق النقط:

لم يكن الخط الذي وصل إلى العرب مرتبطا بالحركات والسكنات، بل كان خالياً من التشكيل، وكان الناس مع ذلك يقرأون الكتابة قراءة صحيحة معتمدين على سياق الكلام وما يقتضيه المقام ودلالة السوابق والملابس.

وانتشر الإسلام واختلطت العرب بالعجم، فكان الأعاجم الذين لا يحسنون استعمال العربية، وكان النشر الذي جاء نتيجة لمصاهرة العرب بالعجم على شاكلة أعظمهم الأعماميات فظهر اللحن في القول، وخيف على القرآن الكريم أن يتطرق إليه اللحن، وعملوا على صيادة القرآن الكريم ولغته فطلب زيد بن أبى (ابن سمية) - وكان واليا على البصرة - في نهاية القرن الأول من أبي الأسود الدؤول أن يضع طريقة لإصلاح الألسنة وقال له: "إن هذه الحمراء قد كثرت وأفسدت من ألسنة العرب، فلو وضعت شيئاً يصلح به الناس كلامهم، ويعربون به كتاب الله، وبعد تردد رضي أبو الأسود.

(١) هذا الفصل من مخاطرات ألقاها الدكتور عبد العزيز الدخل على بعض علماء الأزهر لإنشاء إدارة إحياء التراث الإسلامي بالأزهر تحت إشراف المؤلف.
وطلب من زياد كاتبًا اختياره أبو الأسود من عبد القيس، وقال له أبو الأسود: خذ المصحف، وصياغًا يختلف لون النص إذا رأيتنا فتحت شفتته بالحرف فانقطر فوقه نقطة، وإذا كسرتها فانقطر واحدة أسفله، وإذا ضميتها فاجعل النقطة بين يد الحرف، فإن بها شيئًا من هذه الحركات هنًا فانقطر نقطتين، وأخذ يقرأ القرآن بالتأني والكاتب يضع النقط، وكلها أتم الكاتب صحيحة خذ أبو الأسود نظره عليها، ثم استمر على ذلك حتى أغرب المصحف كله فأخذ الناس هذه الطريقة عنه وشكلوا بها الحروف، فكانوا يضعون نقطة فوق الحروف للمدلالة على فتحها، ونقطة تحت الحروف لدلالة على كسره، ونقطة عن شاله للمدلالة على ضمته، ولا يضعون شيئًا على الحروف الساكن، وإذا كان الحروف مننا يضعون نقطتين فوقه أو تحته أو عن شاله.
وكانوا يسمون هذه النقط شكلًا لأنها تدل على شكل الحرف وصوته، ولم تشتهر طريقة أبي الأسود إلا في المصاحف حصرا على أعراب القرآن الكريم، أما الكتب العادية فكان شكلها نادرًا، لأن المكتوب إليهم كانوا يبدون ذلك تجهيلًا لهم. قال بعضهم: 50 شكل الكتاب سواء ظن بالمكتوب إليه، ومن الناس من كان ينكر من الشكل بهذه الطريقة لقيح منظره، وقد عرض مرة على عبد الله بن طاهر كتاب مشكوكًا، وكان خطه جميلًا فقال: (ما أحسن هذا الخط لولا كثرة شونيه، والتنوعة الحبة السوداء) يقصد القائل بهذا كثرة النقط التي تشير القارئ المبتدئ.

۲- الإعجاز:

المراد بالإعجاز تميز الحروف المشابهة بوضع نقط لمبع العجمة أو اللبس، وقد خلت النقوش التي عثر عليها جميعًا من النقط تماما، وكذلك كانت الكتابة النبطية التي انتهى الرأى حتى الآن إلى أن الكتابة العربية مشتقة منها.
أو هي أقرب حلقة في سلسلة تاريخ الكتابة العربية، وربما كان من المحتمل أن يقال إن الكتابة ظلت خالية من النقط حتى زمن عبد الملك ابن مروان، إذ المشهور أن اختراع الإعجام كان في زمنه، ولكن أقولا لبعض العلماء والمؤرخين الإسلاميين الأول أكد أن النقط كان معروفا قبل كتابة المصحف الإمام (مصحف عثمان) ثم عدل عنه قضاها، وجرد القرآن الكريم منه.

وتذهب بعض الآراء إلى أن اختراع الإعجام كان قبل الإسلام، فقد كتبت حروف على صورة واحدة كالباء والتاء والفاء واللياء، وكذلك الجيم والهاء والخاء ولكنها تختلف في النطق أول أمرا على هذا اللبس فضلا عن أنه عثر على كتابات قديمة متحركة قبل خلافة عبد الملك، فيها إعجام بعض الحروف، ومنها البداية المروية سنة 22 هـ، وبعض حروف كلماتها م מספר، ومن ثم فقد عرف النقط قبل زمن عبد الملك، وربما تساهم الكتاب في إثبات اعتيادا على سلبيته العربي وطبعه في استعمال لغته العربية عن فطرة، أما القرآن الكريم فقد جردت كتابة المصحف الإمام قصد التجريد، حتى إذا أتسعت رقعة الدولة الإسلامية، ودخل الناس في دين الله أولا، وكثير الأئمة الذين أسلموا أو فتح العرب بلادهم، فاضطروا إلى أن يعرفوا العربية قراءة وكتابة، لأنها لغة الدين الجديد ولغة الحاكم الواقف. وقد ظل المسلمون يقرأون في مصحف عثمان بين وأربعين سنة ثم كثر التصحيف في العراق فfusc الحجاج [ابن يوسف الثقفي] عامل عبد الملك بن مروان على العراق، إلى كتابه، وطلب منهم أن يضعوا علامات لتمييز الحروف المشابهة، ودعا نصر ابن عاصم الليثي ويحيى بن يعمر العدوانى (تلميذ أبي الأسود الدؤلي) هذا الأمر وكانت عامة المسلمين تكره أن يزيد أحد شيئا على ما في مصحف

(1) التصحيف: هو تغيير نطق الحروف المبتدئة في الشكل كالباء والتاء والثاء والفاء واللياء.

21
عثمان، وبعد البحث والتروي قرر نصر ويحيى إدخال الإصلاح الثاني، وهو أن توضع النقطة أفرادًا وأزواجًا لتمييز الحروف المشابهة فتميز الدال من الذال تهمه الأولى وتعجم الثانية بنقطة واحدة علوية، وكذلك الراء والزائِ، والرصاد والضاد والطاء والظاء والفجع والعين والعين تجعل تميز السن من الشين بإهمال الأولى وإعجام الثانية بثلاث نقطة لأن لها ثلاث أضاتن؛ فلم أعجمت بنقطة واحدة لتيهم أن الجزء الذي تحت النقطة نون والباقي حرفان، مثل الباء والطاء تسوهل في إعجامهما وأما الباء والطاء والفجع والثاني والثاني، فلم تجعل واحدة منهن مهمة، بل أعجمت كلها، أما الجيم والحاء واللثاء فقد جعلت اللثاء مهملاً وأعجمت الأحريان، واحدة من تحت الأخرى من فوق. أما الفاء والقاف فكان القياس أن تهم أولاً واعجم الآخر بنقطة كباقي الأحرف الزوجية، كالذال والذال، والراء والزائِ، وقد ذهب المشارقة إلى نقط الفاء بواحدة من أعلى والقاف بواحدة من أعلى أيضاً، وذهب المغاربة إلى نقط الفاء بواحدة من أسفل والقاف بواحدة من أعلى، وبعد أن قرأوا نقط بعض الحروف وإهمال البعض الآخر أتفقا على جمع الحروف المشابهة ببعضها بجانب بعض، وتركوا الترتيب القديم وهو ترتيب أجد همز حتى كنمل كتقرا الكرتيب الحديث القائم على ترتيب المخارج وأولها العين، واتبعوا ترتيبها آخر هو الترتيب المجاني: أب ب ث ج خ.

وما كان هذا الإصلاح يستدعي اشتقاء نقط الشكل بنقط الإعجام قرروا أن تكون نقط الشكل بالمداد الأحمر بنقط الإعجام نفس مداد الحروف، وكتب المصاحف بهذه الطريقة وإن خالفت مصحف عثمان.

وأصدر الحجاج أومره للكتاب يتابع طريقة الإعجام وأبلغ عبد الملك ابن مروان فاستحسن ذلك وحل الناس عليه، ولم يختص ذلك بالمصاحف بل عم جميع الكتابة واستمر الأمر على اتباع الإعجام حتى الآن.
الشكل بطرق الحروف الصغيرة:

الأناس في دولة بنى أمية الإصلاح الأول الذي أدخل أبو الأسود الدؤلي والإصلاح الثاني الذي أدخله يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم. أما في الدولة العباسية فقد أراد الناس أن يجعلوا الشكل بمداد الكتابة نفسه تسيرًا للأمر، وقد عنى الخليل بن أحمد بهذا الأمر فوضع طريق أخرى للشكل وهي القائمة الآن بأن جعل للفتحة ألفًا صغيرة مسطحة فوق الحرف، وللكسرة باء صغيرة تحتها وللضممة وأوا صغيرًا فوقه، وإن كان الحرف المحرك منبئًا كسر الحرف الصغير، ووضع للسكون الشديد (وهو ما يصاحب الإغدام) رأس شين بغير نقطه (ٍس) وللسكون الخفيف (وهو ما لا إذام معه) رأس شام بلا نقطة (ٍح)، ووضع للهمزة رأس عين (ٍد) لقرب الهمزة من العين في المخرج، ولألف الوصل رأس صاد (ٍص) توضع فوق ألف الوصل دائياً وللمد الواجب منها صغيرة مع جزء من الدال (ٍمد) وبهذا وضع الخليل ثمان علامات: الفتحة والضممة والكسرة والسكون والشدة وال مد والصلة والهمزة.

وهذه الطرقية أمكّ أن يجمع الكتابة بين الكتابة والإعجام والشكل بلون واحدى هـ(١).

وهو ما عليها مصاحف اليوم.

(١) انظر الخطاطة الكتابة العربية د. عبد العزيز الدلال: ٥٤ - ٦٢.
أجمعوا على أن عدد آيات القرآن ستة آلاف آية ثم اختلفوا فيها زاد على ذلك، فمنهم من لم يزيد ومنهم من قال: ستة آلاف ومائتا آية وأربع آيات وقيل: وأربع عشرة آية وقيل: وتسعة عشرة، وقيل: وخمس وعشرون وقيل: وست وثلاثون (1).

ووهذا الاختلاف لا يعتبر مصدر قلق ولا اضطراب ولا حرية ولا ارتباك في محكم الكتاب. أما مصدره فلظن بعض أرباب هذا الفن بأن الوقف فاصلة، بعد ما قبلها آية، والبعض الآخر عرف أنه وقف تام فلم يعدوا آية، ولم يعتبر فاصلة. فقد اتفقوا على أن الفاصلة بين آيات فهم إنها عمو السملة آية منها اعتبار الآية الأخيرة واحدة ومن لبعد السملة آية منها عمو الوقف على ( أنعمت عليهم) آية فصارت على الرأيين سبعا لم تنقص حرفًا ولم تزد حرفًا وهذا هو بيت القصيد.

أما ترتيب الآيات في سورها فهو توقف آية بأمر من الشارع لا مجال للرأي والاجتهاد فيه، لأن الاعتقاد فيه على الوعي وتوقيف النبي صلى الله عليه

(1) الإتقان: 1/ 67 .

74
 وسلم. قال السيد في الإتفاق: الإجماع والنصوص المتواترة على أن ترتيب الآيات تويقى لا شبهة فيه ذلك؛ أما الإجماع فقد نقله غير واحد منهم: الزركشي في البحان، وأبو جعفر بن الزبير في مناسباته، وعبارت: ترتيب الآيات في سورها وقع تويقى صلى الله عليه وسلم وأمره من غير خلاف في ذلك بين المسلمين. انتهى (1).

وقال القاضي أبو بكر في كتابه الانتصار: ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم؛ فقد كان جبريل عليه السلام يقول: ۵ ضعوا آية كذا في مكان كذا، وقد حصل اليقين بذلك الترتيب من ثلاثة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهل ترتيب السور تويقى أيضًا أم بالاجتهاد؟ أما السورة فيما وصفناها كاتصبعل عليه العلماء: طائفة من القرآن مستقلة أغلبها ثلاث آيات. وعدد سور القرآن ۱۱۴ سورة بلا خلاف، وأما أن ترتيبها تويقى أو اجتهادى، فموضوع نظر من العلماء حيث قال البعض: إنه تويقى في وضعت سورة في مكانها إلا بأمر النبي صلى الله عليه وسلم وتوجيهه، وقال بعض آخر: إنه من عمل الصحابة اجتهادهم وقال الثالث جمع بين القولين: فيقول بعض: الترتيب تويقى والبعض الآخر: اجتهادى، وقد تظاهر هذا القول أبو جعفر النحاس والأباري والكروانى.

والراجح القول الأول: لأن اختلاف المصافح في الترتيب كان قبل العلم بالتويقى فإنما علم التويقى إنصاع الجمع وخضع لترتيب عثمان، ولذلك كان الآخر بترتيب المصاحف العثمانى والالتزام به في كتابة المصاحف واجب لا يحبص عنه سواء أكان الترتيب تويقى أم اجتهادى، لأنه قد أجمع عليه الصحابة، والإجماع حجة ومصدر من مصادر التشريع، فمخالفة الإجماع

(1) الإتفاق: ۲۰.

۲۰
دَاعِيَةٌ إِلَىَّ الفَتَنَة وَذَرِيعَةٌ إِلَىَّ الفَسَادَ، وَدِرَءَ الفَتَنَ، وَسِدَ الْذَّرَائِعَ الْمُؤْدِيَة إِلَىَّ الفَسَادَ وَاجِبٌ يُجَتِّهِ الْأَلْبَانَ، وَأَصِلُّ مِن أَصْوَل شَرِيعَةَ خَاتِمَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسِلِينَ.
وَأَمَّا الْأَخْذُ بِالتَّرْيِبَةِ فِي الْتَلَوْثَةِ فَلَيْسَ بِوَاجِبٍ بِلْ هُوَ أَمْرٌ مَّنْدُوبٌ أَيْ مَسْتَحِبٌُ، كَأَنَّ الْمَوَلَاةَ بَيْنَ الْسُّورِ فِي الْقِرَاءَةِ مَسْتَحِبٌّ أَيْضًاٌ، وَكَرِهَ الْإِمَامُ مَالِكُ مَخَالِفَةَ تَرْيِبَةِ الْمُصْحَفِ فِي الْصَّلاةِ وَغَيْرَهَا، وَأَمَّا تِلْعِيمَ الْصِّبَائِنَ بِدَعَاءَ بَقِصَارِ السُّورِ أَمَّرَ حَسَنٌ طَسِيقَهُ عَلَيْهِمْ وَتَدْرِجَ مِنَ الْسَهِلِ إِلَىَّ الصَّعِيبِ، وَمِنَ السُّورِ الفَقِيقِ إِلَىَّ الَّطَّوَالِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
معرفة المكي والمدني من المباحث المهمة لم يزال التفسير، ومن يتصدى للقضاء ويتعرض للإفتاء، وهو من أهم شروط الاجتهاد ومن لم يتقن معرفة المكي والمدني لا يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى.

وقد اختلف العلماء في اصطلاح المكي والمدني على ثلاثة أقوال: الأول: وهو الأشهر وعلى الآخر: أن المكي ما نزل قبل الهجرة والمدني ما نزل بعدها سواء نزل بمكة أو المدينة أو عام الفتح أو حجة الوداع أم سفر من الأسفار.

يقول الجلال السيوطي: أخرج عثمان بن سعيد البازى بن سند إلى بني ابن سلام قال: «ما نزل بمكة وما نزل في طريق المدينة قبل وصول النبي صلى الله عليه وسلم إليها فهو من المكي وما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم في أسفاره بعد قدمومه إلى المدينة فهو من المدني. وهذا أثر لطيف يؤخذ منه أن ما نزل في سفر الهجرة المكي اصطلاحاً»  (11).

وعليه فإن آية (اليوم أكملت لكم دينكم) (12) من قبل المدني وإن كان نزولًا بعرفة في حجة الوداع مع أن عرفة من مكة؛ لأن الآية نزلت بعد الهجرة.

(11) الالتزام: 9/1. (12) المادة: 3.
وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤْدِيُوا الأَمَانَاتُ إِلَى أُهْلِهَا} (1) مدنية أيضاً، وإن كانت قد نزلت بمكة وكان النبي صلى الله عليه وسلم في جوف الكعبة عام الفتح، لأنها نزلت بعد الهجرة أيضاً.

القول الثاني: أن المكية ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدنى ما نزل بالمدينة، ويدخل في مكة ضواحيها كمئى وعشرات والحدودية فإنها من ضواحي مكة، كما يدخل في المدينة ضواحيها كثيرون وهذا التعريف لا يعتبر مكياً ولا مديناً ما نزل في الأمصار قال صلى الله عليه وسلم: نزل القرآن في ثلاثة أمكنة مكة والمدينة والشام قال الوليد يعني بيت المقدس وقال ابن كثير: بل تفسيره يبوك أحسن.

والثالث: أن ما وقع خطاباً لأهل مكة فهو مكياً، وما وقع خطاباً لأهل المدينة فهو مدني، وحمل على هذا قول ابن مسعود ما كان في القرآن، لا يأبه الذين أمنوا أنزل بالمدينة وما كان في القرآن لا يأبه الناس فقد أنزل بالمكة. فقلت: وفي القولين الأخيرين نظر لأن تعريفها غير جامع ولا منع خلافاً للقول الأول فإنه جامع منع فهو يتضمن الحصر ويلزم الاضطراد.

فوائد معرفة المكية والمدنى
- معرفة النسخ والمنسخ، فإذا تعارضت آياتاً إحداهما مكية والأخرى مدنية، فالحكم تحكيم المدنية ونسخها للمكية لتؤخَر المدينة عن المكية في النزول.

- المساعدة على معرفة تاريخ التشريع؛ فالعلم بالمكية والمدنى وسيلة لمعرفة متي فرضت العبادات من الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وغيره

(1) النسخة: 58

28
ذلك ما تعبدون به الله - سبحانك - فعلاً أوتركا كتحرير الخمور والربا وغير ذلك من المنهيات .

- معرفة حكمة الله في إصلاح عباده وسته الجارية في خلقه.

- زيادة الثقة من المؤمن في كتاب الله وحصانته من دس السم في العسل من المستشرقين بما يثيره من شهبات وأضرام ، ومفتيات وأكاذيب حول هذا الدين القوي.

وليس ثقة من سبيل إلى معرفة الكني والمدنى إلا النقل الصحيح عن الصحابة الذين كانوا يشاهدون مواقع النجوم ويعرفون أسباب النزول وعن التابعين الآخرين عنهم والناقلين منهم .

مميزات المكنى

- الدعوة إلى أصول العقيدة ، والإيام بالرسالة المحمدية ونبذ الشرك وعبادة الأوثان وإقامة الأدلة العقلية والكونية والنفسية والبحث على النظر في الأفكار والاحتمالات بينهما في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتمكن المرء من الشروحة.)

- إقامة الحق على المشركون ومجادلتهم ليبيان بطلان عبادتهم للأصنام التي لا تضر ولا تنفع ، ومنهم من تقليد آبائهم في باطلهم الواضح ، وجهلهم الفاضح.

- الحيل على الآداب والفضائل الثابتة ، وأصول التشريعات العامة ، خصوصا التشريعات التي هي عمل اتفاق بين الأديان ، وهي حفظ النفس والمال والعقل والدين والنسب ، خصوصا الآيات التي تحت في الثبات على

٤٣

(١) فصلت ٥٣.
العقيدة، وآياتها التي تدعو إلى الصلاة والصدقة والعفاف والصدق وصلة الرحم والفطر والثواب في الدنيا والآخرة ونحو ذلك، والتي تقضي بالحق والنصيحة بالصبر، أو تنهي عن القتل والظلم و حقوق الولد وئود الموهود و هو نوع من القتل.

ذكر قصص الأنبياء للعظمة والاعتبار.

قضى الآيات المكية وجازتها مع بمغى المعنى المقصود على أكمل وجه.

تنحدارهم ببلاغتها لما كانوا عليه من البلاغة والفضاحة.

ميزات المدنى

- توجيه الدعوة إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى للدخول في الإسلام.
- توجيه الدعوة إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى للدخول في الإسلام.
- توجيه الدعوة إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى للدخول في الإسلام.
- توجيه الدعوة إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى للدخول في الإسلام.

- توجيه الدعوة إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى للدخول في الإسلام.
- توجيه الدعوة إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى للدخول في الإسلام.
- توجيه الدعوة إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى للدخول في الإسلام.
- توجيه الدعوة إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى للدخول في الإسلام.

- توجيه الدعوة إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى للدخول في الإسلام.
- توجيه الدعوة إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى للدخول في الإسلام.
- توجيه الدعوة إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى للدخول في الإسلام.
- توجيه الدعوة إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى للدخول في الإسلام.

- محافظة شئون الجهاد وحكم القتال وما يتعلق به من معاهدات الصلح وإنفاذ العهود وإبرام المعاهدات وحكم الغنائم والفيء وفق الأسرى
- تحقيق الفرار وتولية الأدوار وتوضيح ذلك وضوح الشمس في رابعة النها.

- إطلاق النفس في الآيات المدنية والسور المدنية؛ لأنها تعالج الأمور المتقد.

(1) انظر في هذا مورد الظلال في علوم القرآن للدكتور علي نصر.
ذكراً ما يتطلب الإسهاب والإطاب والبسط والشرح والتشريع والتفصيل.
وإذا الأسلوب يناسب أهل المدينة لقلة فصاحتهم ومعايسيَّة اليهود لهم.
نكتشف عن فضائح المنافقين وبيان خبر نواباهم وسوء طواهيهم وفساد
طاعتهم واهتمامهم بشؤون الدنيا دون أمور الأخر
ومن السور المكية والمدنية والخضرة والسفرية ما ذكره الجلال السيوي في
كتاب النقايحة له:
الأصح أن ما قبل الهجرة مكية وما بعدها مدني. فالدميني البقرة وتلاث
تليها (أي: آله عمرا والنساء والمائدة) والأنفال وبراءة والرعد والجح والنساء
والأخزاب والقتال (سورة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم) وتاليةها (أي
الفتح والهجرات) والجعزة والتحرير وما بيبها (أي المجادلة والجعر
والتجتعة والصف والجامعة والمنافقين والانفجار والانفجعة والقذاء
والزلزلة والنهر والمعزّت). قبل: والمزبن والإنسان والإخلاص والفائثة
وقبل النساء والرعد والجح والحب والأحيد والصيف والتفجع والقذاء والمعزّت
(مكيات).

الحضري والسفري
الأول كثير، والثاني: سورة الفاتحة وآية التنزيم في المائدة بذات الجيش
أي البيداء. كما نزلت آية: كُنوا يومنا ترجعون فين إله. بمن و(آمن

(1) النقايحة للسيوي: خطوط بمكتبة الأزهر.
(2) ذات الجيش: مكان من المدينة على بعد اثني عشر ميلا.
(3) البقرة: 281.

31
الرسول ... إلى آخرها (1) يوم فتح مكة و (2) يسألونك عن الأنفال و (3) هذان خصائص يبد، و (4) اليوم أكمل لكم دينكم وإن عاقبتم (5) بأحد.

(1) البقرة : 285
(2) الأنفال : بعض الآية الأولى.
(3) الحج : 19
(4) المائدة : 3
(5) النحل : 126

32
علم أن المناسبة علم شريف تقوم به العقول، ويعرف به قدر القائل فيها يقول، وأهمية هذا العلم كتب فيه أساطين العلما من المفسرين كالبقاعي وأبي جعفر الزبير الأندلسى النحوي الحافظ، والفخر الرازي وغيرهم.

والمناسبة في اللغة: المقاربة.

قال العز بن عبد السلام: المناسبة علم حسن ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحدد مرتبط أوله بآخره فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر.

والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة؛ ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جم وحكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سبقت له. فإذا أنتمت النظر وأمعنت الفكر رأيت افتتاح كل سورة في غاية المناسبة لما ختمت به السورة قبلها، ولكن ذلك يخفى تارة ويجلي أخرى كإفتتاح سورة الحديد بالتسبيح: سبحان الله ما في السماوات والأرض فإنه مناسب لتختم سورة الواقعة من الأمر به في قوله تعالى: فسبح باسم ربك العظيم.

وتأمل التقابل المعجز في سورة الكوثر لما قبلها في سورة الماعون.
ففية سورة الماعون وصف الله المنافق بأمور أربعة:

بخل، وترك الصلاة، والرياء فيها، ومنع الزكاة فذكر في سورة الكوثر.

في مقابلة البخل: في أعرضك الكوثر أي الكثير في مقابلة ترك الصلاة.

ففصل: أي دم عليها؛ وفي مقابلة الرياء (لربك) أي لرضاه لا للناس فإن العمل من أجل الناس شرك وترك لأجلهم رياج وفي مقابلة منع الماعون: وانحر)، وأراد به التصدق بلحم الأضاحي، فاعتبر أنها القارئ العزيز هذه المناسبة العجيبة.

وانظر إلى مناسبة افتتاح سورة الإسراء بالتسبيح وسورة الكهف بالتضمين.

لأن التسبيح مقدم على التحميد فقال: سبحان الله والحمد لله.

وجين أن تعرض للمحاسبات لا أستطيع أن أغلق القصة بمقاماتها الفنية في القرآن تلك التي يهرت أعظم كتاب القصة قديماً وحديثاً في الشرق والغرب.

وذلك العظوم والعبر والأمثال.

 فالقصة ركبتها الأساسيان: عقدة وحل سواء قررت كالقصص أو طالت كالقصة والحكاية والرواية، سورة يوسف مثلاً على تعدد مرامها ونبل جماهيرها لا تخرج عن طفر تأبه: العقدة، وأبوه اطهاء: الخلق، وتميز القصص القرآنية بصدق في الأخبار وهو مع رعويه في النسج وبلاغته في التعبير فإنه الخيال لا يتطرق إليه.

وقد يستدعي ذكر القصة في القرآن، لكن بأساليب مختلفة وإن كان المضمون واحدًا.

وقد تتم القصة القرآنية بجميع مقوماتها الفنية فيها لا يزيد على سطرين.

واللوك نموذجاً يدل على صدق الدعوى.

قال تعالى في سورة يونس:
فلولا كانت قرية آمنت فنشعها إياها إلا قوم يوئس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين (1).

فالعقدة عدم إيان القوم فاستحقا العذاب .
والحل : لما آمنوا كشف عنهم هذا العذاب .
أما البطل فهو يوئس وأما المجموعة فهم القوم .
أما زمن القصة في الحياة الدنيا والاستمتاع إلى حين (2).

والمكان القرية … أليست هذه مقومات القصة الفنية عند الكاتب؟

ومن أغراض القصة في القرآن إثبات الوحي والرسالة وتوحيد القول من الله لسائر الأنبياء … وفي سورة الأنبياء مظهر واضح لوحدة الرسالة يمكّن معرفته من خلال ذكر أطراف من قصة موسى ويهود وإبراهيم ولوط وداود وسلمان ولويب وإسحاق وإدريس وذو الكفل وهذا النون وزكريا ومرام ثم يعقب الحق تبارك وتعالى على ذكرهم قائلا : إن هذه أمكتم أمة واحدة وأنا ربيكم فأطيعون (3).

وأن وسائل الأنبياء في الدعوة واحدة واستقبال أقوامهم لهم متشابهة وقصة كل بني منهم تشابه مع الأخرى في الدعوة والجهاد والبدء والختام .

تحقيق موعود الله من نصر أنبيائه وأحبائه وخلالان أعدائه في مثل قوله تعالى : فلبيصرن الله من نصره (4) وإن ينصركم الله فلا غالب لكم (5) .
وكان حقا علينا نصر المؤمنين (6).

كما أن الموظفة ملاءمة لما يذكر من قصة أو مثل أو غيره ، ويتجلى ذلك في

قوله تعالى: ﴿حتى إذا استيسق الرسل وظُلنا أنهم قد كذبوا جاهؤهم نصرًا ﴿(1).

فالقصة القرآنية إحدى وسائل القرآن الكريم في معالجة أخطر مسائل العقيدة، وأن الغرض الدنيوي في القصص القرآني قد أريد له أن يتحقق عن طريق الجيل الفني وبواسطته، ومن هنا جاءت هذه القصص القرآنية لوحات رائعة حتى كأن الناحية الفنية التصويرية فيها قد قصدت لذاتها، ولهذا نُجع المشركون حين تلت عليهم هذه القصص فقالوا فيها: ﴿أساطير الأولين اكتبها فهي تملح عليه بكرة وأصيلاً ﴿(2). وذلك بعد أن فاتهم ما سبقت هذه القصص من أجل يقوم الإمام محمد عده: ﴿جاء القصص القرآني لأجل الموعظة والاعتبار، لا لبيان التاريخ ولا للتملص على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرین، فحكاية القرآن لا تعدو موضوع العبارة ولا تتتجاوز موطن البداية، ولم يكن من عناصر القصة القرآنية عناصر القصة الخرافية أو الأسطورية، لأن القرآن يستمد قصصه من حياة الناس، حتى إنه ذكر بعض أولئك الذين تحدث عنهم في أمثاله القصصية بأسبلهم أو أكثى بذكر أوصافهم، ولم يستبعد واحدًا من أمثاله القصصية وغير القصصية من خرافة أو أسطورة حيوانية أو نباتية أو جمادية.

ومن الخصائص الفنية للقصة القرآنية ذكرها ملخصة تارة، وذكر مغزها تارة أخرى، وطورا ثانياً تذكر القصة بلا مقدمات ليتحقق عنصر المفاجأة في مثل قصة ولادة المسيح عيسى بن مرئم - علها السلام - من غير أب، وقصة نبي الله سليان مع المهده أو بلقيس ملكة سباً مع سليان التي انتهت بقولها: ﴿رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليان الله رب العالمين ﴿(3).

(1) يسوع: 110. (2) الفرقان: 5. (3) النمل: 44. 36
وقد تحول القصة إلى حوار شاق جذاب في مثل ما جرى بين الخليل والنموذج:

قال إبراهيم: ربي اللذي يحي وميت.
قال النموذج: أنا أحي وأميت.
قال إبراهيم: فإن الله يأتي بالشمس من الشرق فأت بها من المغرب فدهت اللذي كفر.

وفي مثل قصة موسى وفرعون.
قال موسى وأخوه هارون: إذا رسول رب العالمين.
قال فرعون: أم ربك فنيا ولبدأ ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين.
قال موسى: فعلتها إذا وأنا من الضالين. فقرت منكم لما خفتم فوهب لربي حكما وجعلني من المرسلين. وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل.
قال فرعون: وما رب العالمين؟
قال رب السموم والأرض وما بينهما إن كنتم موظنين.
قال من حوله ألا تستمعون.
قال ربك ورب أبناءكم الأولين.
قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون.
قال رب الشمس والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون.
قال لمن اتخذت إله قيرى لأجعلك من المسجونين.
قال أو لو جنتك بشيء مبين.

37
قال فأت به إن كنت من الصادقين . . . الآيات (1).

ويستمر هذا الحوار الرائع بين المحتاجين ثم تكون الغلبة والنصر لله ورسوله.

فيتألق الحق ويندحر الباطل ويدخل الناس في دين الله أفواجاً.

أما قصة الخليل إبراهيم مع ولده إسحاق وهو يهم بلجحه فيشاد انتباهه فيما المناقشة الهادئة بين الأب والأب والابن والحوار البناء في كيفية تنفيذ أمر الحق ساحنه و تعالى وما يظهر ذلك فيها من امتثال الأمور ، وبر الأب ومساعدة أبيه على طاعة الله .

قال الأب : يا بني إني أرى في المنام أنني أذبح ماذا ترى ؟

قال الابن : يا أبيت أفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين (2).

تلك بعض سياق القصة في القرآن وهي سيات تسر القول بأن : القرآن يجعل من الجمال الفني أداة مقصورة للتأثير الوجداني ، فيخطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية (3).

(1) السفراء : 51-61 .
(2) الصافات : 102 .
(3) التصور الفني في القرآن للأستاذ ميقم قطب .
38
الأسئلة في القرآن

ما أكثر الذين تحدثوا عن أهمية الأمثال العربية حتى ذهب بعضهم إلى أنها حكمة العرب في الجاهلية والإسلام.

وإذا كانت الأمثال بهذه المكانة الرفيعة والمنزلة المرموقة لما فيها من جوامع الكلم ونوادر الحكم، لأن الأمثال في كل أمة هي خلاصة تجربتها وحصول خبرتها والمرآة التي تتعكس على صفحتها عادات الأمة وأخلاقها وأفكارها وسائر مظاهر حياتها في كل شأن من شؤونها. إذا كانت الأمثال بهذه الثوابية فلا غرابة أن تكون الأمثال القرآنية قد بلغت الغاية القصوى في الأمهية، لما بلغته من براعة التصوير ودقة التعبير. ولتنالها كل ما من شأنه أن يثير للإنسان طريقه في الحياة ويبدد أمامه ظلال الجهل والضلال.

فهى كوسائل الإيضاح تعين الطالب على فهم الدور وتوقفه على طبائع الأشياء وحقائقها.

والأسئلة القرآنية بعد هذا أحكام وإن لم ترد على ما ألف أن تجيء عليه الأحكام من الأمر بالشيء أو النهي عنه بشكل مباشر؛ لأن التعديل القرآني - وإن كان تصويرًا للأشياء ليس تصويرًا وتشخيصًا لها لمجرد الرغبة في التصوير والتشخيص وإنها أريد به إحقاق الحق وإزالة الباطل وإظهار الأشياء على ما
هي عليه، وحكم لهذه الأشياء أو حكم عليها. ولذلك ذهب الشافعي رضي الله عنه إلى أنه ما يجب على المجتمد معرفته من علوم القرآن علم أمثاله، كما اعتبرها المؤرخة من أهم علوم القرآن (1) فالمثل وسيلة إدراك ما لا يمكن إدراكه، وقد عرفه الأدباء بأنه القول السائر الممثل بموضوع أو المشبه حالة مضربه بحالة مورده أي الحالة التي ورد فيها القول. فهو استعارة مثيلية مبنية على التشبيه المركب كقولك للمتارد في فعل أمر من الأمر:

- ما ل أراك تقدم رجلًا وتأخير أخرى؟

وقيل في ضابط المثل: إن إبراز المعنى في صورة حسية تكسيه روعة وجمال، والمثل بهذا المعنى لا يشترط أن يكون له مورد، كيا لا يشترط أن يكون مجازًا مركبا.

ومن سيات المثل: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكلمات.

ولقد وردت الأمثال في القرآن، ولا يستطيع باحث أن يتفاقل عن ورودها فيه، ولا عب ترتبط على ذلك من شرف مكانتها، وسمو منزلتها، إذ لولا عظم شأنها للا تضمنها، فضلاً عن إكاراً منها، كيا أكثر من الآيات التي أشادت بها.

ومن أبرز تلك الأمثال مثيل الله ما أتخذه من دونه وليا كمثل العنكبوت انتحذت بيتا، وعل عاب المشركين ضرب الأمثال بالأشياء الحقيقية كاللباب والبعوض والعنكبوت ردوهم الحق تبارك وتعال قائلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُسْتَحِيَّ أن يَضْرِبَ مَثَالًا مَا بَعْضُهُ فِي فَوْقَهَا﴾ (2) فأكد سبحانه أنه لا

(1) نظرية المعنى في النقد العربي للدكتور مصطفى ناصر.
(2) البقرة: 26.
يستنفّف من ضرب الأّمال بها هو أصغر وأحمر من تلك التي استصغروها وحقوقوها، وضرب المثل رساماً، وبراعة الرسام لا تظهر في قدرته على إظهار الجميل بمظهر القبيح ولا القبيح بمظهر الجميل، وإنّا تتجلّى براعة في قدرته على المشابهة والمطابقة بين الصورة وصاحبها.

كما أن ضرب المثل مراّة صادقة وصولاً إلى المرّة من عنّب في إظهارها للقيّح من الأمّياء قبحة، ولجميل منها جماله.

وقد امتن الله سبحانه عنا الناس بضرب الأّمال فقال: ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ (1).

والآمال من الأسلحة التي كان لها أثرها الفعال في الصراع العقدي بين النبيّ وبين خصومه الذين قال الله فيهم: ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواهم ويّبأّي الله أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ (2).

وإذا كانت أمثال القرآن ناراً أحترق أباطل المبطلين، وسيوف ماضية شهرين في وجه المعاندين والمكابرین، فإنّها تور يكشف للناس الغي من الرشاد، والمدى من الضلال ويعزي به الحجّب من الطيب. إذا كانت كذلك فهي ليست تصويراً وتشخيصاً للأشياء لمجرد الرغبة في التصوير والتشخيص، وإنّها هي إحقاق للحق وإزهاق للباطل وحكمة للشيء أو عليه، وفيها العبرة لمن اعتبر، والذكرى لمن شاء أن يتذكر، فهي تجسد ذلك وتربرجه من طريق الصورة ومن هنا كانت الأمثال خير باعث على التذكّر والتدبر والاعتبار.

قال تعالى: ﴿ويضرب الله الأّمال للناس لعلّهم يذكرون﴾ (3) وقال:

(1) الرّم : 58 (ب) براءة : 32
(2) إبراهيم : 20
(3) إبراهيم : 32
ولذلك فإن الأمثال تطلب عليها عين على فهمها وإدراك ما فيها من عظات وعبر وحكم.
قال تعالى: "وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون" (1) كأن الأمثال القرآنية أحكام وتشريعات، وإن جاءت على غير ما عهد الناس من مجيء التشريعات والأحكام من أساليب. فإذا كانت هذه أهمية الأمثال في القرآن الكريم فلا غزارة أن يردها الرسول صلى الله عليه وسلم من أوجه القرآن الخمسة يقول:
"إن القرآن نزل على خمسة أوجه: حلال، وحرام، ومحكم ومشابه، وأمثال، فاعمروا بالحلال، واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم، وأمنوا بالمتشابه، واعبروا بالأمثال" (2).
ومن أنواع الأمثال في القرآن الأمثال المسروحة كقوله تعالى في معرض ذكر المناققين "مثلهم كمثل الذي استوى ناراً . . الآية" (3).
ولأمثال الكامنة: وهي التي لم يصرح فيها بللفظ التمثيل ولكنها تدل على معان رائمة في إنجاز يكون لها وقعاً إذا نقلت إلى ما يشبهها ويمثلون هذا النوع بأمثلة منها:
ما فيمعنى قولهم: "خير الأمور الوسط" قوله تعالى:
في سورة البقرة: "لا فارض ولا بكر عران بين ذلك" (4).

وفي سورة الفرقان: "والذين إذا أنفقوا لم يسرفو ولم يقتروا وكان بين ذلك قواتا" (1).

وفي سورة الإسراء: "ولا تجه بصالاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا" (2).

وفي سورة الإسراء أيضا في الاقتصاد في النفقه: "ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنفك ولا تبسطها كل البسط فتغد ملومة حسورة" (3).

وما في معنى قولهم: ليس الخبر كالعميان.

قوله تعالى في سورة البقرة حاكيا عن إبراهيم عليه السلام: "قال أو لم تؤمن قال بن ولكن ليطمئن قلبي" (4).

وما في معنى قولهم: "كيف تدين تدنا" (5).

قوله تعالى: "من يعمل سوءا منزه به" (6).

أما النوع الثالث من الأمثال فهو الأمثال المرسلة وهي جمل أرسلت إرسالا من غير تصريح بلفظ التشبيه فهي آيات تجري خري الأمثال ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: "الآن حصص الحق" (7).

"فقضي الأمر الذي فيه تستفتين" (8).

وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم" (9).

_______________________________________

(1) الفرقان: 110.
(2) الإسراء: 27.
(3) الإسراء: 29.
(4) البقرة: 260.
(5) الناس: 132.
(6) يوسف: 51.
(7) يوسف: 41.
(8) البقرة: 216.
ولا يحقق المكر السيء إلا بأهلهٔ (١).

ومن فوائد الأمثال إبراز المعقول في صورة المحسوس.

وكشف الحقائق وعرض الغائب في معرض الحاضر.

وجمع المعاني المسهمة في عبارات موجزة.

وقد يضرب المثل للتنوير حتى تشمئز النفوس فلا تقدم على ارتكاب الفعل
المهنئ عنه كـ `فولا في قوله تعالى: `ولا يغتب بعضكم بعضاً أجيب أحدكم أن
يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه` (٢).

`فولا في مقدمة المثل في مثل قوله في أصحاب رسول الله صلى الله عليه
وسلم: محمد رسول الله والذين معه أشدا على الكفار رحماء بينهم ... إلى
 قوله: `فذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزعع أخرج شطأ ...` 
الأية (٣).

فالإمثال أوقع في النفس وأبلغ في الوعظ وأقوى في الزجر، وأبهر في
الإقناع، والأمثال في السنة النبوية الشريفة لا تقل شأنها ولا خطر عنها في
القرآن، وكان صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يستعملها .. وكتب السنة مليئة
بمثل هذه الأمثال فلتطلب في مظاتها.

وأختم هذا النوع من الأمثال بأحسن مثل ذكره في قوله تعالى: `الله نور
السموات والأرض` ... الآية (٤) فإن فيها خمس تخلصات: وذلك أنه جاء بصفة النور وتميله ثم تخلص منه إلى ذكر الزجاجة وصفاتها ثم رجع إلى ذكر
النور وازبت يستمد منه ثم تخلص منه إلى ذكر الشجرة ثم تخلص من ذكرها

(١) الجزء: ١٢
(٢) الجزء: ٤٣
(٣) الجزء: ٢٩
(٤) الجزء: ٣٥
إلى صفة الزيت ثم تخلص من صفة الزيت إلى صفة النور وتضاعفه ثم تخلص منه إلى نعم الله بإلهى على من يشاء (1).

وفي تعليق على هذا المثل المضروب في الأذني بالأعلى ما قاله أبو تمام حين وصف المأمون قائلاً:

إقدام عمر دف في ساحة حاتم في حلم أسحق في ذكاء إياس

فقيل له إن الخليفة أعلى من مثله بهم فقال على الفور:

لا تنكر ضربه له من دونه

ما كراء شرودا في الندى والباس

فأنت ضرب الأقل لنوره

ما من المشكاة والنبراس (2)

وخلاصة القول في المثل: أنه القول الموجز السائر المثل مضره بمجرده،

والحكم الجارية على الألسنة أو القائم صدقها في العقول، ويمكن استعارته للصفة والقصة والحال إذا كان لأي منها شأن فيها غرابة.

(1) البركان في علوم القرآن للبركان الزركشي.
(2) تفسير النسفي / سورة النور.
ومن مناسبات الآية ما أفرد ابن قيم الجوزية بالتصنيف في مجلد أسياه التبيان والقصد بالقسم تحقيق الخبر وتوقيده حتى جعلوا مثل : "وَالله يَشَهَدْ إِنِ المنافقين ٚ كاذبون" فسأ وإن كان فيه إخبار بشهادة؛ لأنه لما جاء توكيداً للخبر سمى قسماً.

وقد يتساءل البعض : ما معنى القسم من الله سبحانه وتعالى فإنه إن كان لاجل المؤمن فللأيمن مصدر ب مجرد ورد الخبر من غير قسم، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيده ذلك والجواب على هذا التساؤل بأن القرآن نزل بلغة العرب ومن عادت القسم إذا أرادت أن تؤكد أمرًا. كيا أجاب أبو القاسم الفقهي صاحب تفسير «طقائف الإشارات» بأن الله ذكر القسم لكي يكون الحجة وتأكيداً وذلك لأن الحكم يفصل بينين : إما بالشهادة، وإما بالقسم فذكر تعالى في كتابه النوعين حتى لا يبقى لحجة فقال : "شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهَا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَهَوْلاً عَلَمَةٌ وَأَوْلِيَاءُ الْعَلَمِ ... " وقال : "قل أي واربى إنه لحقه".

(1) آل عمران : 18.
(2) يونس : 53.
وعن بعض الأعراب أنه لما سمع قوله تعالى: { في السيار رزقكم وما تعودون فورب السيار والأرض إنه حق}. (1) صرح الأعرابي وقال: من الذي أغضب الجليل حتى أتجه إلى اليمين؟
ولا يكون القسم إلا باسم معظوم. وقد أقسم الله تعالى نفسه في القرآن في سبعة مواضع، وإلباقي كله قسم بمخلوقاته. (2)
أخبر ابن أبي حاتم عن الحسن قال: { إن الله يقسم بما شاء من خلقه وليس أحد أقسم إلا بالله}.

يقول القروطبي: المحلة هو الله سبحانه وأسياه الحسن كال الرحمن والرحيم والسميع واللهم بالرحيم ونحو ذلك من أسياه وصفاته العليا كجزء وقدرته وعلمه وإرادته وكرهية وعظمه ووعده ويثاقة وسائر صفات ذاته، لأنها يمين قديم غير خلق فكان الحالف به كالحالف بالذات.

واختلفوا في الحالف بالقرآن، ومن المعروف عن ابن مسعود جواز الحلف بالآية الواحدة من القرآن، وله قال الحسن البصري وابن المبارك.

وقال أحمد: ما أعلم شيئا يدفعه. وقال أبو عبيد: يكون يمينا واحدة.
وقال أبو حنيفة: لا كفرة عليه، وكان قتادة جزف بالصحف. وقال أحمد وسأحاق: لا تكره ذلك.

ولا تعتقد اليمين بغير الله تعالى وأسياه وصفاته وقال أحمد بن حنبل: إذا حلف بالله صلى الله عليه وسلم انعقدت يمينه، لأنه حلف بما لا يتم الإيام إلا به فتلزم الكفرة كما لو حلف بالله. (3)

الدرايات: 226 .
(2) الإجابة / الجزء الثاني.
(3) الجامع لأحكام القرآن / سورة المائدة.
وقد ذكر الله تعالى في الكفارة العشرين الثلاثة، فخير فيها وعقب عند عدمها بالصيام، بدأ بالطعام لأنه كان الأفضل في بلاد الحجاز لغلبة الحاجة إليه وعدم شبعهم.

ولا خلاف في أن كفارة الميمين على التحير: قال ابن العربي، والذي عندى أنها تكون بحسب الحال، فإن علمت محتاجاً فالطعام أفضل، لأنك إذا أعطت لم تدفع حاجته وزدت محتاجاً يضاف إلى العشرة مساكين، وكذلك الكسوة تليه، ولمّا علم الله الحاجة بدأ بالقدم المهم، ولا بد من تملك المساكين ما يخرج لهم، ودفعه إليهم حتى يتملكوه ويتصرفوا فيه لقوله تعالى: "وَيَطَعُوْمُنَا لَا يَطَعُّمُ" (1)، وقيل الشافعى والإطعام عند مالك مد لكل واحد من المساكين العشرة والنصف قدم بالكيل المصري.

وقال أبو حنيفة: يخرج من البر نصف صاع، ومن التمر والعصير صاعاً.

قال مالك: إن غذى عشرة مساكين وعشاءهم أجزأه.

وقال الشافعى: لا يجوز أن يطعامهم جملة واحدة، لأنهم يختلفون في الأكل، ولكن يعطي كل مسكن مدة.

قال القرطبي: لا يجوز عندنا (أي معرش الملكية) دفع الكفارة إلى مسكن واحد وله قال الشافعى. وأصحاب أبي حنيفة يمنعون صرف الجمع إلى واحد دفعة واحدة ويتخلفون فيها إذا صرف الجمع في يوم واحد بدفعات مختلفة؛ فمنهم من أجاز ذلك، وأنه إذا أعدد الفعل حسن أن يقال في الفعل الثاني: لا يمنع من الذي دفعت إليه أولاً فإن اسم المسكين يتناوله. وقال آخرون: يجوز دفع ذلك إليه في أيام، وإن تعدد الأيام يقوم مقام أعداد

(1) الأئم: 14.

48
المساكين. وقال أبو حنيفة: تجزئه ذلك؛ لأن المعصوم من الآية التعريف بقدر ما يطعم فلم يدفع ذلك القدر لواحد أجزاء. ودليلنا نص الله تعالى على العشرة فلا يجوز العدول عنهم. وأيضا، فإن في إحياء جمعة من المسلمين، وكفايتهم يوما واحدا في تفرقون فيه لعبادة الله تعالى ولدعاته فيغير للمكلف بسبب ذلك والله أعلم.

( أو كسوتهم ) والكسوة في حق الرجال الثوب الواحد السائر لجميع الجسد، فالأمر في حق النساء فالأمر ما يجزؤها في الصلاة وهو الدرب والخمار، وهكذا حكم الصغار فكمسنت كبيرا كالكباب قياسا على الطعام. وقال أبو حنيفة والشافعي والترم والحنفي: أقل ما يقع عليه الاسم وذلك ثوب واحد وفي رواية أبى الفرج عن مالك، وهو قال النخعي ومجتجر: ما يستر جميع البدين بناء على أن الصلاة لا تجزئ في أقل من ذلك.

ولا تجزئ القيمة عن الطعام والكسوة وشبه قال الشافعي وقال أبو حنيفة:

تجزئ القيمة في الكفارة كتأجزئ في الزكاة.

وإذا دفعت الكسوة إلى ذمي أو عبد لم تجزئه، وقال أبو حنيفة تجزئه؛ لأنه مسكون يتناوله لفظ المسكنة ويشتمل عليه عموم الآية. (1)

فمن لم يجد) معناه لم يجد في ملكه أحد هذه الثلاثة من الأطعام أو الكسوة أو عنق الرقبة بإجماع. فإذا عدم هذه الأشياء الثلاثة صام ثلاثة أيام متتابعات وقال مالك والشافعي في قوله الآخر: تجزئه التفرقة لأن التتابع صفة لا تجزئ إلا بنس أو قياس على منصوص وقد عندنا يقول أبو الاسم القشيري: والقسم بالشيء لا يخرج عن وجهين: إما لفضيلة كقوله:

(1) راجع جامع الأحكام للغرطيبي/ سورة المائدة.

49
وطر بسين وعذرا البلد الأمين أو لنفعة كنوله تعالى: والتين
والزيتون.

وقد أقسم الله تعالى بثلاثة أشياء: بذاته كالآيات السابقة وبفعله نحو:
السيا وما ينها... الآيات وهمفه نحو: والنجم إذا هوى،
والثور وكتاب مسطور.

وقد يكون القسم ظاهرا أو مضمورا فالظاهر كالآيات السابقة وأما المضمور
ففسان: قسم دلت عليه اللام في مثل قوله تعالى: لتبلون في أموالكم
أنفسكم.... الآية وقسم دل عليه المعنى في مثل قوله تعالى: وإن
منكم إلا واردا وتقديره والله.

وأسلوب القسم ثلاثة أمور:

١- أداة القسم.

٢- المقسم به.

٣- المقسم عليه.

أداة القسم: الصيغة الأصلية للقسم: أقسم أو أحرف مع تعدى الفعل
بالباء إلى المقسم به كنوله تعالى: وأقسموا بالله جهد أبائكم لتن أربك
ليخرجون....

وأما كان فعل القسم يكثر في الكلام جاز حلفه والاكتفاء بالباء ثم عوض
عن الباء بالواو في الأسماء الظاهرة كنوله تعالى: والليل إذا يغشي (١)
وبالتاء في لفظ الجلالة كنوله تعالى: والله لأكيدن أصنامكم... الآية (٢)

وهذا قليلا أما الواو فكثيرة.

(١) والليل: الآية الأولى.
(٢) الأنياب: ٥٦
المقسم به: وهو أمر جميل وخطر عظيم وليس لأحد أن يقسم بها شأن
سوية الله سبحانه وتعالى، وليس ذلك لغيره من المخلوقات.
المقسم عليه: مما يراد توكيده وتحقيقه ولا سيما إذا كان من الأمور الغائبة
والخفية إذا أقسم على ثبوت كقوله تعالى: ﴿وَالنَّجَمَيْنِ ﻟَوْىٖ ﻣَأْضَلَّ صَاحِبِكَمَ ﻭَمَا غَوَىٖ﴾ وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يري (١).
وجواب القسم يذكر تارة وهو الغالب، ويجذب تارة أخرى في مثل قوله
 تعالى: ﴿فَلا أقسم بثواب القيامة، ولا أقسم بالله وهو دل على قولك تعالى: ﴿لَيْسَ ﺑٰنَاسِ أن ننْتَصَبَ عَزَّزَاهُ﴾ (٢) والتقدير: لتبعتن ولتحاسبن.
معنى لا أقسم.
ادخلت: ﴿لا نافية على فعل القسم في بعض المواضع كقوله تعالى: ﴿فَلا أقسم بمواقع النجوم﴾ (٣) ﴿وَلا أقسم بالشفق﴾ (٤) ﴿وَلا أقسم بما تبصرون وَلا تبصرون﴾ (٥).
وقد ذكر المفسرون فيها عدة آراء تذكر منها:
• أن لا النافية إذا جاءت لمحلنف يناسب المقام وقتقدم، لا صحه لما تزعمون
من إنكار البث والحساب فقال أقسم بثواب القيامة... وعلى قراءة ابن كثير: لا أقسم (اللام للتوكيد ليست نافية) والتقدير أنكم ستعثمان.
• لا زائدة إن صح التعبير حيث لا زيادة في القرآن، ولذلك فإن أهل الأدب
مع الله يقولون: إنها للتوكيد.

(١) النجم: ١ - ٣٣
(٢) القيامة: ١ - ٥
(٣) النجوم: ٢٧٥
(٤) الأشواق: ١٢٨
(٥) الحاقة: ٣٨
ما قاله أبو مسلم من أن لا نتفق القسم فكانه تعالى يقول: أسألك غير مقسم لأنني لا أقسم بذلك اليوم ولا بنفسك التي بين جنبك.. أحسب أنا لا نجمع عظامك.. إذا أشرقت بالمروت فإن كنت تحسب ذلك فاعلم أننا قادرون على أن نفعل ذلك.. فظاهر الكلام نفي القسم ولكن المراد بهذا النفي التوصل إلى التأكيد وكأنه سبحانه يقول: الأمر بين فلا حاجة لنا إلى القسم عليه.. وهذا قول يؤكد الخبر أشد تأكيد(1).

وأختم هذا البحث بقسم الله سبحانه وتعالى بحياة نبى محمد صلى الله عليه وسلم لما فيها من فوائد جمة تعود على هذه الأمة كمماته صلى الله عليه وسلم كما قال: (حياتي خير لكم وماتي خير لكم ... الحديث) (2).

قال تعالى: (فلم يعمر إنهم لفي سكرتهم جميعون) (3).

أخرج البيهقي في الدلائل وأبو نعيم في الحلية وغيرهم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: (ما خلق الله تعالى وما ذرأ وما برأ نفسا أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم وما سمعت الله سبحانه أقسم بحياة أحد غيره.. ولا عجب. فإن الذي أخذ الميثاق على سائر النبين أن يؤمنوا به وينصروه ويشهدوه ثم يشهد عليهم بذلك لا جرم أن يفرده بالقسم بحياته دون سائر النبيين.. والله أعلم.)

(1) في نور القرآن/ الدكتور: عبد الله شحاته.
(2) رواه ابن ماجه في سنته.
(3) الحجر: 72.
الحروف السبع

هذا البحث من أهم المباحث التي تتعلق بالكتاب المبين، وهو مبحث شائع، وعمر الساكن، صعب على كل ساكن حيث تعددت المعاني حول الحروف القرآنية حتى تأتي فيهم المراد من الحروف السبعة على بعض العلماء، فأثر السلامة بالسكون عن تأويل الأحاديث المتواترة في إنزال القرآن على سبعة حروف لأنهم عدوهما من المشكل المشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله والراضخون في العلم.

وبعضنا هذه المناسبة حوار إذاعي دار بين الأستاذ العقاد رحمه الله وأحد المذيعين الذي سأله: لو أنك التقت برسول الله صلى الله عليه وسلم فمن أي شيء كنت سائله؟ فأجاب على الفور:

- كنت أسئله عن معنى الحروف السبعة.

وقد اختلافوا في تفسيرها على نحو أربعين قولا أوردتها العلامة السيوطي في كتابه "الإثبات في علوم القرآن" كما أيد هذا الرأي ولي الله الصافاقسي (1).

قال العلامة الكورفي في مقالاته (2):

(1) في الثقة للصافاقسي ص 10 ط مصطلحات البابي الحلي.
(2) مقالات الكورفي ص 31 مطبعة الأنوار.

53
والفائق أن القرآن الكريم كان ينزل معظمه على لغة قريش على حرف واحد
إلى أن فتحت مكة وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجا وأخذت القبائل
العربية المختلفة توافد فأذن الله سبحانه على سكان نبه صلى الله عليه وسلم أن
يقرؤوا القرآن على لغتهم وهم مسلمين تسيرًا ولم يسعون فيها من لغتهم إلى
لغته كما يدل على ذلك حديث أبي بن كعب رضي الله عنه عند البخاري
ومسلم والترمذي وغيرهم.

قال الطحاوي في مشكل الآثار :

إذا كانت السعة للناس في الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير
لغاتهم فسوغ لهم في اختلاف الألفاظ إذا كان المعنى متفقاً، فكانوا كذلك
حتى كثر منهم من يكتب وعادتهم لغاتهم إلى لسان رسول الله صلى الله
عليه وسلم فاستطاعوا بذلك حفظ ألفاظهم فلم يسعهم حينذاك أن يقرأوا
بخلافها؟

قال القرطبي: قال ابن عبد البر: فإن هذا أن تلك السبعة الأحرف إنها
كانت في وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك، ثم ازدادت تلك الضرورة
فاضفر حكم هذه السبعة الأحرف وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد (١)
ويقول الأستاذ الدكتور الكوفي أستاذ التفسير والحديث بكلية أصول الدين
حين تعرض لأحد حديث أن القرآن على سبعة أحرف، هذا الحديث نزل في آخر
العهد المدني حين دخلت القبائل المختلفة الإسلام بعد صلح الحديبية، فكان
تخصيصا للقبائل أن تقرأ القرآن بها لقناها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاظ
يرجعوا فيها بينهم لا وجود لها في لغة قريش، وكانت هذه رخصة للقبائل
لأنهم لم يعودوا لسان قريش حيث كانت وسائل الوابط في الجاهلية شبه

(١) الجامع لأحكام القرآن- تفسير القرطي ط الشعب.

٥٤
منعدمة، والقبائل يحارب بعضها البعض ولكن قبيلة نظامها ودستورها ورئيسها وكان نظام الخبايز سائدًا بينهم، أي الحرب القبلية التي لا بدًا لها إلا غلبة القوى على الضعيف، وجاء هذا الحديث وقت دخول القدامى، وبناء على سؤال الرسول حين سأل ربه التخفيف فرخص له في حرفين إلى سبعة كما جاء في الحديث وكان في كل مرة يقول: "إن أمتى لا تطيع ذلك، لعله بلغات العرب جميعًا، وهنا لابد لنا أن نعلم أن الرسول علم لغات العرب إما بالوحي أو بمجرد قوة إدراكه واتصاله الخاص ببعض القبائل، ولكننا نرجع أن علمه بكل لغات العرب كان معجزة أظهرها الله على يده، وكتب بها لكل القبائل كل بلغته، ومن هنا ترى الرسائل النبوية مشتملة على ألفاظ وأساليب لا تألفها الآن كما تألف القرآن الكريم الذي كتب بلغة قريش ونزل بها في تسعة عشر عامًا من لدنبعثة إلى صلح الحديبية، فيما كان عام الوافدين.

 cavaliers تتلقي عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ك قوله لأحد الوافدين: "إذا أعطيناك الكوثر بلداً من أعيني أطمن الكوثر"، وكتاب مع الله عليه وسلم: "ليس من الإيمان صيام في السفر" بدلًا من: "ليس من البر الصيام في السفر" وكلغة الكسكسة والكشكشة مثل: "قد جعل ربي تحتشر سرياً أو: "قد جعل ربي تحتشر سرياً، وذلك بدلًا من "قد جعل ربك تحتش سرياً، وليس معنى هذا أنه أقرأ كل قبيلة القرآن كله إلا إنه كان يقرأهم حسب ما يسر لحفظهم وما يحتاجون إليه، وإذا فالكتابة بالأحرف السبعية لم تكن إلا بين يدي هذه القبائل وأجلها.

أما كتاب الوحي منذ نزل القرآن بعدها فكانا يكتبون بحرف قريش وفي القرآن أكثر من 87 سورة مكية وكتاب الوحي كلهم قريشون كتبوا بها وكذلك في الشطر الأول من العهد المدنى، وما حدث في الأحرف والكتابة بها للقبائل لم يكن من كتاب الوحي الرسوميين الذين يكتبون للرسول صلى الله عليه وسلم في اللحاف والطيب فيها كان يحتفظ به هو أو يحتفظ به الصحابة لأنفسهم.
بالمدينة، فكلاً كانت بحرف قريش، ومن هنا كانت الصحف البكرية
تُنسب إلى أبي بكر الصديق، نسخة من عينما كتب بين يدي النبي صلى الله
عليه وسلم بلغة قريش، وكان المصحف العثاني نسخة منها وليس لاختلاف
القراءات دخُل في اختلاف الأحرف.

فالقراءات كلها بلغة قريش، وما جاء به الصحابة لزيد بن ثابت لينسخه
في الصحف كان من عينما كتب بين يدي الوسول بكتابه الرسومين وكتابه
الصحابة لأنفسهم، وكذلك فعلت اللجنة في المصحف العثاني، ولا يشكل
على ذلك قول عثمان لِللمجاهِرة: ما اختلفت في أنتم فزيد فأكتبوا بلغة قريش،
لأن زيداً كان آخر الناس بكتابه ما نزل من الوحي إذ أنه الكاتب الأول للوحي
القرآني، وإذا فكان المصحف العثاني جماعا للأمة على حرف قريش، وكانت
اللغة السائدة وقتئذ، وهذا عزم عثمان على من كان عندئذ شيء من الأحرف
الأخرى أن يحرقه، لكنه لم يمنع صاحبها من قراءة ما سمعه من الوسول لأنه
قرأ في حقه وهو مستوفى للشروط القرآنية، وإذا فالأختلاف بين القبائل في
أذرع كان ناشئاً عن اختلاف الحروف التي كانت تقرأ بها وكتبها لنفسها
فكان جمع الناس على المصحف لنع هذه الخلافات.

وفي ختام هذا العرض أقول: إن القرآن مشتمل على الأحرف السبعة
بمعانيها المختلفة لقوله تعالى: { ما فرونا في الكتاب من شيء } (1) وأن
وجه القراءات تدخل ضمن هذه الأحرف، وأن القراءات العشر المتوازرة مما
هو معلوم من الدين بالضرورة (2). ولا يضر الجهل بها.

(1) الأهمام: بعض أية 38.
(2) انظر كتابنا: شرح طبعة النشر في القراءات العشر- المقدمة.

59
الخفيف على هذه الأمة، وإزادة اليسر بها، وإجابة لقصد نبيها صلى الله عليه وسلم حيث قال: "سأل الله معافاته .. الحديث" (1).

معنى الأحرف

قال أهل اللغة: حرف كل شيء طرفه ووجهه وجافته وحده وناهيه والقطعة منه.

والحرف أيضًا: واحد حروف النهج.

قال الداني: يحتل الحرف هنا وجهين.

أحدهما: أن القرآن أنزل على سبعة أووجه من اللغات لان الحرف يراد به الوجه كقوله تعالى: "۶۶ من يعبد الله على حرف" (2) أي على وجه مخصوص.

والآخر: أنه سمى القراءات أحرفًا على طريق السعة كعادة العرب في تسميتهم الشيء باسم ما هو منه وما قاربه وما جاوره.

(1) أخرجه مسلم في صحيحه.
(2) المجل
قال ابن الجزري: "ولي نيف وثلاثون سنة أمعن النظر في هذا الحديث حتى فتح الله على بشيء أرجو أن يكون هو الصواب وذلك أني تبعت القراءات كلها فإذا اختلافها يرجع إلى سبعة أوجه خاصة.

إما في الحركات فلا تغير في المعنى والصورة نحو البخل بوجهين أو بتغير في المعنى فقط نحو:

فتلقي آدم من تكليات وهي قراءة ابن كثير المكي بتقديم الفعل على الفعل.

وإما في الحروف تغير في المعنى لا في الصورة نحو: تبلوا، وتتلوا أو عكس النحو: الصراط والسراط أو بتغييرهما معا نحو:

( أشد منكم ومنهم) وإما في التقديم والتأخير نحو: (يقتلون ويقتلون)

أو في الزيادة والنقصان نحو: ووصي وأوصي.

وأما نحو اختلاف الأظهار والتضخيم والمد والإملاء والإبدال وتحقيق الهمز ونقله وأضدادها مما يعبر عنه بالأصول فليس من الخلاف الذي يتنوع فيه اللغة أو المعنى لأن هذه الصفات المتدرجة في أدائه لا تخرجه عن أن يكون لفظا واحدا ثم رأيت الإمام أبي الفضل الرازي حاول ما ذكرته وكذلك ابن قتيبة والله تعالى أعلم.)

وأما فائدة اختلاف القراءات وتنوعها فقد جمعها ابن الجزري في كتابه "النشر" في نقاط عدة رأيت أن أذكرها لك أياها القرأة الكريم تاما للفائدة، وحثت على الوقوف على أسرار هذا الفن المعجز بفظه ومعناه فمنها ما في ذلك من نهاية البلاغة وكمال الإعجاز وجمال الإيحاء وغناية الاختصار.

(1) شرح طبيبة النشر في القراءات العشر الجزء الأول بهفيفنا.
ومَنِّها ما في ذلك من عظيم البحان ووضوح الدلالة فلا اختلاف في القرآن
اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ولا تنافض ؛ بل كله يصدق بعضه ويشهد
بعضه لبعض على نمط واحد وأسلوب واحد ما يدل على صدق من جاء به
صلِّ الله عليه وسلم.
ومَنِّها سهولة حفظه وتيسير نقله على هذه الأمة كأن منَّها فتح باب
الجهاد لم تتوفر فيه شروطه من الاستباط والتوجيه والكشف والتعليم
والترجيح والتفصيل ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، والأجر كـ ما يقولون على
قدِر المشقة.
ومَنِّها بيان فضل هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم بإقبحهم على كتاب الله
وجمايتهم من التحريف والتبديل والعمل بما جاء به.
ولو لم يكن من خصوصيات هذه الأمة إلا محافظتها على الإسناد لكتف ولع
لم يكن من خصائصها إلا هذه الخاصية لوفت.
رأى جديد في الأحرف السبعاء
أجمع علماء الأمة على أن الأحرف السبعاء ليس أن يقرأ الحرف الواحد على
سبيعة أوجه إذ لا يوجد ذلك إلا في كلمات بنمط نحو ( آتٍ، ي و جبريل،
والله ) و ( هية و هيت).
كما أجمعوا على أنه ليس المراد بالسبيعة هؤلاء المشهورين لعدم وجودهم في
ذلك الوقت ثم خلفوا فقال أكثرهم هي لغات ثم اختلفوا أيضا في تعينها
فقال أبو عبيد: القاسم بن سلمة قريش وذهب وثقف وهوزن وكتانة وثيم
واليمين وقال غيره: خمس لغات في أكثاف هوازن، سعد وثقف وكتانة
وهديل وقريش ولغتان على جميع ألسنة العرب وقال الهروي: سبع لغات من
59
لغات العرب أي أنها متنفرة في القرآن فبعضه بلغة قريش وبعضه بلغة هذيل وبعضه بلغة هوازن وبعضه بلغة اليمن. وفي هذه الأقوال كلها نظر فإن عمر وشاما مختلفاً في سورة الفرقان وكلاهما قرئان من لغة واحدة. وقيل المراد بها معايتي الأحكام كالحلال والحرام والمحكم والمشابه والأمثال والانشاد وال الخبر ويقل الناسخ والمنسوخ والخاص والعام والم글 والملع والملسم، وقيل: الأمر والنهى والطلب والدعاء والمحتر والاختلاف والزرع، وقيل: الوعد والوعيد والملحق وال المصدر والأخلاق والإعراب والتأويل، وله هذه الأقوال أيضاً نظرًا؛ فإن سببه وهو اختلاف عمر وهشام لم يكن إلا في قراءة حروف لا في تفسير ولا أحكامه.

أما الجديده في معنى الأحرف السبعة فهو أن الأحرف السبعة هي القراءات السبع المشهورة المتواترة المعلومة من الذين بالضرورة لأن الثلاثة ثمة العشرة لم يختلفوا كثيراً في قراءتهم عن السبعة فالذي نافع وأبى جعفر تكاد تندرج قراءة أحدهما في الآخر ويقرب الحضربي أصله أبو عمر البصري، وخلف العاشر تلميذ حمزة وراويه الأول ولم تختلف قراءته عن الكوفيين بل إنهم لم يختلف عن حمزة والكسائي وشعبة إلا في حرف واحد هو قوله تعالى: في حرام على قرية أهل بكاء.

فقد قيل: أنه ليس المراد بالسبعة هؤلاء القراء المشهورين لعدم وجودهم في ذلك الوقت يرد عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة الخنج بنمنى: "رب مبلغ أوعي من سامع" والحديث في الصحيحين: البخاري ومسلم. وفي شرح البيجوري على جوهرة التوحيد للقاضي عند قوله: "والملك وسائر الأئمة" أورد شيخ الإسلام إبراهيم البيجوري حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "يروى أن تضرب أكباد الأبل يطلبون العلم فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة فحمل على الإمام مالك، وورد: عالم قريش يملأ طبق الأرض".
عليه فحمل على الإمام الشافعي كيا ورد: 'لر كان العلم بالثريا لناله رجال من فارس حمل على أبي حنيفة وأصحابه، وكل من هذه الأحاديث ظن الدلالة ويدخل فيها كل عالم. قلت: وهذه الأحاديث من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم فإن من معجزاته الإخبار بالغيب، فلا تحجب أبا القارئ الكريم أن يراد بهذه السبعة هؤلاء القراء أصحاب تلك القراءات وغيرهم من فتح الله عليهم في هذا الفن والله أعلم بالصواب'.

وقد ذهب جماعة من الفقهاء والقراء والمتكلمين إلى أن الأمة يحرم عليها إهمال شيء من السبعة. وذهب الجمهور إلى أن المصاحف العثانية مشتملة على ما يحمله رسمها من الأحرف السبعة فقط جامعة للعطرة الأخيرة لم يترك منها حرف وهو الظاهر لأن الأحاديث الصحيحة والآثار المستفيدة تدل عليه.

(1) انظر حاشية الجزء الأول من كتابنا شرح طيبة النشر ص 11.
(2) المرجع السابق الجزء الأول.
التجويد هو إعطاء كل حرف حقه خراجاً [ وهو أن يخرج كل حرف من خرجه ] وصفة كالرخاوة والشدة.

والتجويد فرض عين. كما قال العلامة علاء الدين الطربلسي وذلك عند شرحا لقول ابن الجزيره:

والأخذه بالتجويد حتم لازم لأنه به الإله أئذى وهكذا منه إلينا وصلا ودليل فرضه. قوله تعالى : { وَرَبِّ الْقُرْآنِ تَرْتِيبًا } (1) وقد أدرك سبحانه الأمر بال المصدر.

أما دليله من السنة فقوله صلى الله عليه وسلم : { رَبَّ قَارِئِ الْقُرْآنِ وَالقُرْآنِ يَلَعِّبُهُ }.

وأما دمت ياقاري العزيز قد عرفت أن التجويد إعطاء الحروف حقها خراجا وصفة فلا واحد للك من التعرف على خارج الحروف وصفاتها.

قال الشمس ابن الجزير في مقدمته:

(1) المؤلف: 4.
إذ واجب عليهم مختصم
قبل الشروع أولاً أن يعلموا
خارج الحروف والصفات
للفظوا بأقصص اللغات

وهي لغة العرباء التي نزل بها القرآن الكريم.

خارج الحروف

خارج الحروف من أهم أبواب التجويد، فيجب أن يعتنى بإتقانها كل من أراد أن يقرأ القرآن المجيد.

والخارج اسم لموضع خروج الحرف، والخيز الذي يتكون فيه الصوت اللغوي، وحروف المعجم التي تبلغ تسعة وعشرين حرفًا خرج من سبعة عشر حجرا، وهو المختار عند المحققين كالحليل ابن أحمد.

وخارج الحروف تحصر في أربعة من أعضاء جسم الإنسان وهي: الحلق، الفم، والشفة، والجوف. فأول الخارج جوف الحلق، وفيه ثلاث أحرف: أولاً: الألف، ثانياها: الواو الساكنة المضبوطة ما قبلها والثالث: الياء الساكنة المكسورة ما قبلها، وهذه الأحرف الثلاثة تسمى حروف المد واللتين والحروف الهواة والحروف الجوفية. وزاد الخليل على هذه الأحرف الثلاثة المهمزة لأن خرجها من الصدر وهو متصل بالجوف وثاني الخارج أقصى الحلق وخرج منه حرفان: الهامزة والباء وثالثها: وسط الحلق وفيه حرفان الميم والحاء المهمزان أما رابع الخارج فهو أدنى الحلق إلى الفم وفيه حرفان: الغين والحناء المعجمتان. وهذه آخر خارج الحلق. 63
خراج الفم

وخامس المخارج التي تلي الحلق من أقصى اللسان فوق الحنك وهي القاف فقط.

أما سادسها فمن أقصى اللسان أيضا لكن من تحت خرج القاف قليلًا وما يليه من الحنك وهي الكاف فقط. وهذان الخزانان يسمى كل منها حرف 

"قوي" نسبة إلى اللهجة وهي بين الحلق والفم.

واسبع المخارج وسط اللسان يعني بينه وبين وسط الحنك وفيه ثلاثة أحرف: "الجيم والشين والباء" والمراد إليه غير المذكورة آنفا في الجوف.

وهذه الأحرف الثلاثة تسمى: الشجرية وذلك لخروجها من شجر الفم.

وهو منفتح ما بين اللحفي وشجر الحنك المقابل لطرف اللسان.

وثامن المخارج "للضاد" وهو أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس من الجانب الأيسر عند الأكبر ومن الأيمن عند الأقل. وقيل إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يخرجها من الجانبين.

وتاسع المخارج "اللام" وهي من حافة اللسان من أدنى إلى متناها طرف عتيق الضاحك والنب والرباعية والثانية وفيه اللام فقط.

أما عاشر المخارج فهو للنون ويكون من طرف اللسان بينه وبين ما فوق الثنايا تحت خرج اللام قليلا.

الحادي عشر للواء وهو من خرج النون لكنها أدخل في ظهر اللسان قليلا.

من خرج النون.

والحرف الثلاثة: اللام والنون والباء تسمى بالحروف الدبلقة نسبة إلى موضوع خرجها من ذلق اللسان أي من طرفه.

64
قال ابن الجوزي في منظومته:

واللام أدناها لمتتها

النون من طرفه تحت اجعلوا... والرافدية لظهر أدخل

قال الفراء وقطرب والجرمي وابن كيسان وهم من أئمة النحو: الثلاثة

أحرف تخرج من خرج واحد وهو طرف اللسان.

المخرج الثاني عشر: للظاء والدال المهلتين والثاني المثلثة من طرف

اللسان ومن الثانى العليا.

وهذه الأحرف الثلاثة تسمى بالأحرف النبطية، لأنها تخرج من نقطع الغار

الأعلى وهو سطحه.

أما المخرج الثالث عشر فحرف الصرفر وهي: الصاد والزاي والسين.

وتخرج الثلاثة ما بين طرف اللسان وفرقث الثانى.

الرابع عشر: للظاء والدال والثاني من بين طرف اللسان وأطراف الثانى.

العلا واللاؤوس وحروف اللائدة نسبة إلى اللائدة وهي اللحم المركب في الأسنان.

أما المخرج الخامس عشر: للقاف من بطن الشفة السفلي وأطراف الثانى.

العلا.

والمساس عشر الواو غير المدية والباء والميم ما بين الشفتيين وتقسيم

الحروف الشفوية.

المخرج السابع عشر: الخيشوم وهو للغغة، والغغة تقع في النون واللم.

الساداتين حالة الإخفاء أو ما في حكمه من الإدغام.

فهذة خارج الحروف الأصلية كلها. (1)

(1) انظر في هذا كتاب شرح طية النثر في القراءات العشر بتحقيق المؤلف 1/ 271/ 285- 276 الأزهر.
كل الذين يقرأون القرآن يعرفون أن ربع سوره أو يزيد منحتة ببعض الحروف الهجائية بأساليبها مقطعة مسرودة ليس بين بعضها وبعض ولا بينها وبين الكلام الذي يليها ذلك الربط المعهود بين أجزاء الجمل العربية.

وينير في هذا البحث أن نذكر عن هذه الفواتح كلمة موجزتين نشير في إحداهما إلى طريقة رسمها وتلاوتها، ونبرز في الأخرى وجه النظر المختلفة في المعنى المقصود منها.

أولا: فيها يتعلق بالرسم والتلاوة

السنة المثبتة في رسم هذه الفواتح أن كل حرف منها يرسم حرفاً واحداً مع أن السنة المثبتة في تلاوتها أن كل حرف منها ينطق ثلاث حروف هكذا فحرف 

ق، ينطق "الله"، وحرف ت، ينطق "لا"، وحرف يا، ينطق "عين"، وهلم جراً، ويستثنى من ذلك الحروف التي آخرها همزة كالحاء والباء والفاء وراءها وإليهما فإنها تتنطق حرفين اثنين إذ يوقف فيها على الألف الليئة لا على إهمزة فهي مقصورة لا محدودة هكذا

ر - يا، ي - يا

66
ولا تحسبن أيا القارئ الكريم أن هذه السنة التي بنيها في اختلاف الرسم والتلاوة خارجة عن قانون القراءة والكتابة القياسيتين. كلاً؛ فتلك هي سنة حروف المعجم إذا جاء بها مقطعة غير داخلة في تقويم كلمة معينة إلا ألا ترى أنك إذا قلت للكاتب: اكتب جيما، مثل الكتب ج، فصورها بذاتها ومضاها وصورتها الشارحة حينها تكون بعضا من كلمة، ولكنك إذا سألته بعد ذلك، ماذا كتب؟ قال: "جيب". فينطق باسمها المركب المستقل.

فعل هذه القاعدة جرى الأمر في رسم هذه الفواتح وتلاوتها فترسم كما زالت حروفا وتتنطق كما سمعت كلمات مستقلة وتسكن أواخرها بسكون الوقف؛ لأنها لم تدخل عليها الواعمال التركيبية التي توجب إعرابا خاصا بل جيء بها فرادي مسرودة بيد أنها مع سكونها توصل في النطق عند الجمهور، ويراعى فيها ما يراعي في سائر الكلمات المفصلة من المد والوداع ونحوهما في مواضعها المعروفة. وروى أبو حيان عن ابن القعقاع أنه كان يقطعها حرفًا حرفًا، بوقفة وفقة.

ثانيه: المسمى

لم يختلف أحد من المفسرين، القدامى منهم والحديثين في أن كل واحد من هذه الأسماء موضوع بإزاء حرف التهجي المتعلق به في بناية ذلك الاسم. فكان مثله اسم كاف، حرف كاف ولام اسم لحرف ل، وميم اسم لحرف م وهم جرا (1).

(1) من المعروف أن الحروف المجاورة وعندها تسمة وعشرون حرف، ووضعها أباء كل اسم منها يبدأ بالحرف نفسه ويستثنى من ذلك الألف الليئة أى المدة التي بعد الفتحة فإنها لا لم يمكن الابتداء بها نفسها وعدها الواضح بحرف قبلها يمكن التخطيط بها. ونأخذ أن يكون هذا الحرف هو اللام. فقال: لا، لا، لا، لا، لا، مثل يسمى معالم الأطفال لألف، وبعضهم لا يزيد حرفي ألف الليئة اكتفاء بالألف فتكون الحروف المجاورة ثانية وعشرون حرفًا. وهو.
تقول هذا القدر لا خلاف فيه. أما الاختلاف الكبير المطروح في كتب التفسير فلا عن تراجم القرآن من الصحابة والتابعين وعن علماء العربية من المتقدمين والتأخرنين فليس اختلافاً في المعنى الوضعي، وإنما هو اختلاف في المقصود منها في مساهل السور: أو أن ذلك المعنى الوضعي نفسه؟ أم أنها نقلت فوضعت بإزاء معنى جديد نعرفه ونعلم أنه هو مراد الله تعالى منها؟ وإذا لم يكن لها معنى جديد معروف وراء ذلك المعنى الأصل فهل للفتح السور بهذا التهجين حكمة معقولية لنا أم هو وضع تبديع لا نعرف حكمته، ورس إلى لا ندرك خياله، هكذا يمكن رد الأقوال المشبوهة في هذه المسألة والتي تبلغ عشرين قولاً أو يزيد إلى ثلاثة أقوال رئيسية لا زائدة عليها، وها هي ذي تنشرها لك على عكس طبيها.

السؤال الأول

وهو مذهب الشعبي والوثني، وجامعة من المحدثين وهو مروي عن الخلفاء الأربعة الراشدين وابن عباس رضي الله عنهما أننا لا نعرف من أمر هذه الفواتح إلا ما يعرفه كل أحد من أنها أسام هجائية لحروف المباني، وأنه تعالى أمرنا عند تلاوة بعض السور أن ننطق في افتتاحها بين الأسماء لحكمة يعلمها هو فيها علينا إلا السمع والطاعة لأمره. لأن له أن نعتدنا بما نعقل مصلحته وما لا نعقل، كما أمرنا في الحج والصلاة والكفارات بأعداد خاصة وأوسمة معينة لا ندرك الحكمة في تحديدها، وكما أمر إبراهيم الخليل عليه السلام بذبح ولده، وأوحى إلى أم موسى بإلقائه ابنها في اليم. ولا شك أن من تمام الاختيار بصدق الإيحان تكليف المؤمن بها لا يعرف وجه المصلحة فيه، بل الطاعة في الأمر المجهول الحكمة؛ أقرب إلى تحقيق العبودية والإخلاص منها في الأمر المعقول المعنى.

ولناقل أن هذا خطاب بها لا يفهم، وأنه يجب تنبيه القرآن عنه؟
لأنناقول: إن مصوع الكلام أن الله تعالى يقول لنا: قولوا: كاف؟ قولوا: كاف؟ فيقولوا: ميم. وهذا مفهوم تمام الفهم، ولا يختصنا إلا أن نعرف: لماذا نقول؟ وهذا سؤال لا يوجه إلى الحكيم متي صدق الإيان بحكمته، فإن كانت هذه الأسماء ليس لها في الواقع مدلولات وراء هذه المعاني الهجائية، فالأخر واضح كا قرنا، وإن كانت في جملتها، أو في آخادها رمز في الواقع معان يعلمها الله تعالى فهذا لا يضيرنا، لأننا لم نخاطب بها من جهة المعاني الرمزية، ولا مطالبة بفهمها ولا بامتثال مضمونها الغيب، إنها خطابنا بها من الرؤية الفكرية، وهي التعب بلبلتها، والذى يدلنا على أننا لم نخاطب بها من الزاوية الرمزية، لأننا كانت لذلك لوجب على الرسول صلى الله عليه وسلم بيان مدلولات تلك الرموز لأنه لا يمكن معرفتها إلا من طريق الوجه، والثقي على وضح تلك الرموز سبحانه، ألا وإن لو بينها الرسول صلى الله عليه وسلم لنقل عن هذا البيان، لكنه لم ينك عنه صلى الله عليه وسلم في بيانه شيء، ولن تقل عن أحد من الصحابة سؤاله عنها، وإذا لم بينها الله لنا عن سن الرسول ولم تكن هي بيئة في نفسها فقد أصبح الخطاب بها لو وقع شيئا بالتكلم بالرطبات من لا يعرفها، أو بالأحاديث والعوسيات مع من لا سبيل له إلا فهماها. وهذا وذاك إنها هو ضرب من العبث أو الجهل، أو تكليف ما ليس في الوسع والله أعلم وأعلم من أن يبعث أو يجهل، وهو أرحم عباده من أن يكلفهم ما لا طاقة لهم به. وإذا ثبت أنه لم يتعلق بما في شأن هذه المعاني الرمزية تكليف مباشر، علميا أو عمل، ولم يكن تفهم الجمع المتصلة بتلك الفواتت متوقعا على فهم المعاني المذكورة حتى يكون فهما من قبل مقدمة الواجب صار البحث عن إذا من التكليف الذي قال فيه عليه وصي الله عنه: «نينأ عن التكليف» حين سل عن معنى «الأب» في قوله تعالى: «وفاكهة واية» (1) بل التكليف في مسألتنا أبين، لأن «الأب» كلمة داخلة

(1) سورة عبس.: 31.
في الجملة معطوفة بالابر مؤلفة مع غيرها تأليف الكلام العربي بخلاف هذه
الفواكه وزيد هذا المعنى وضحا فقول:

كما لا يعني مشتري السلعة أن يعرف مدلول تلك الأرقام الاصطلاحية التي
تكتب على حاشيتها، وإنما يعني أن يعرف مخزى المقال أو مضمون الخبر أو
جودة السلعة، فكذلك لا يعني قاريئ السورة أن يعرف المشارك إليه بتلك
الرموز على وجه التحديد، مثلاً وقف على مقاصد الآية ومعاني الجمل، وساء
علينا بعد ذلك أن كان هذا السر محوجياً عن النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً
كما حجب عننا لم كان مكرفاً له دوننا، فإنه لا يلزم من علمه عليه السلام
بالشيء الذي لم نكلف به علمنا به، إذ هو أعلمنا بالله وأياته. وما متنا إلا له
مقام معلوم، وقد قيل: إن السر بين الحبيب والحبب لا يلزم أن يطلع
عليه الرقيب.

السؤال الثاني

وهو مذهب كثير من علماء العربية أن تلك الأسياء وإن لم نقل عن
أوضحها الأولى ولا تزال دالة على معانيها الهجادية إلا أن ان في افتتاح السور بها
حكا معقولة يظهر بها من يلممسها بتدبر، من ذلك ما أشار إليه الأحسائي وابن
عبيدة من أن الله تعالى كنا افتتح بعض السور من كتابه بذكر: الشمس،
والضحى، وفجر، والليل، والنجم، والطور، والتين والزيتون وغيرها من
النغم الكونية ليكون ذلك جاذباً لbioset الناس إلى الإيمان بواهبها، والخضم
لأمره والقيام بحقوقه، والاستعداد للقائه، وليكون ذلك يسيراً إلى ما بين القرآن
وبين هذه النغم الجسام من تمام الشبه بينها في خصائص الصفة الإلهية.
كذلك افتتح الله بعض السور بذكر الحروف التي هي أصول النطق والكلام
تذكر بأن تلك النغم الجميلة التي خص الله بها الإنسان من بين سائر الحيوان
ألا وهي نسبة العلم والبيان. بل التذكير بهذه النغم أمس بالمقام، لأنها واقعة.
بين يد القرآن الذي هو أحسن أنواع التعليم والبيان، وكا ذكرت النعم الكونية على وجه القسم بها تونى بجيل شهاب، كذلك هذه النعمة البارية، غير أن القسم بها مطوى، حذف أداته على طريقة قولهم: الله لافعلن كذا، وهو حذف سائح في لفظ الجلالة باتفاق، وفي غيره عند علماء الكوفة، ومن ذلك ما قاله المُبرد وجم غفري وهو أن في تقطيع هذه الحروف بين يدي الكلام المتحدث به إهابا لنقوس العرب، وإثارة حمية المبارضة فيها إذ كانت هذه الحروف الهجافية هي مواد الكلمات العربية، والكلمات العربية هي مواد الكلام العربي الذي يسابقون بها في حلبة المفاخرة، فكانه قيل لهم: لو أنا جنتاك بقرآن أعجمي ويكلام مؤلف من حروف غير الحروف التي تتألف منها لتفتح لكم لقتم لكم العذر في عدم الإيمان بمثله، أما وهو مؤلف من حروفكم مصيغ من المادة التي تصنفون منها كلامكم، فلا يعقل سبب عادي لمحجزهم ولولا أنه فوق طاقتكما ما تساسطت دونه أقداركم، على أنه لم يكلف بهذا القدر في التبيك، بل زاده تشييعا وتهويلا إذ جاءهم عند سرد هذه الأحرف بجميع الوجه التي تجيء عليها أصول كلياتهم العربية، فجعل منها ما هو عن حرف واحد مثل: قال، ن، وما هو عن حرفين مثل: حم، و طس، وعلى ثلاثة نحو: آلم، و طس، وعلى أربعة: مار، و المثص، وعلى خمسة: كهبعص، وهذه هي نهاية أبنيةهم الأصلية كأنه قيل لهم: نستلمكم ضرحا معيانا من ضروب الكلمات العربية فدونكم المفرد والمركب والطويل والقصير والخفيف والثقيل، إننا نحن كما أن تأتوا منها بأي وجه شتم فهاتوا ما استطعتم ولكنكم لن تستطيعوا ولو حرصتم.

ومن ذلك أن مجرد نطق النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الأسئلة الهجافية فيه مسحة من الإعجاز بدركها السامع من أول الأمر قبل أن يقف على أسلوب القرآن ودرجته في الفصاحبة والبلاغة، وذلك أن العرب وأهل كل لغة يستوى
أتمهم ومتعلمنهم في النطق بجواهر الحروف والكلمات الدالة على معانيها، وأما التهجي وتخليط الكلمات إلى أجزائها وتسمية كل حرف باسمه الاصطلاح مدرسي فلا يعرف منهم إلا القارئ الكاتب هذا النبي الأمى لما سمي الحروف بأسمائه وهو لم يقرأ ولم يكتب، ولم يجلس مجلس التعليم من قارئ أو كاتب، كان ذلك من خبرات من خوارق العادات وأية من آيات الله الرب.
هو الذي بعث في الأمين رسولًا منهم يلوا على هم آياته ويزكيهم
ويعلمهم الكتاب والحكمة (1)...

إشارة ثالثة إلى ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن عند تلاوة القرآن من
الخضوع والتواضع، والنزول منه منزلة الصبي من معلمه ومؤدهه بحيث يقف
عند أوامره وزواجته موقف السمع والطاعة فلا يتقدم برأيه وهواء في دين الله

(إن الحكم إلا الله) (2).

ومن ذلك ما روى عن قطرب، أن الاستفاطر بهذا الهجاء لما اشتمل على
ضرب من الغرابية والمخالفة لمختلف العرب في معاوراتهم، وكان فيه من قوة
التنيه واسترجاع الأسماع ثمرة مزدوجة، فهو قبل كل شيء إسكات المستهزئين
الذين كانوا يقولون: فلا تسمعوا هذا القرآن واللتها فيه وهو بعد ذلك
توجه لعنايتهم إلى الشأن المهم الذي يليه، ولذلك لا يجد في إثر هذه الفواتح
إلا شأنًا جليلا يراد التنبه عليه في أول السورة. وكان أشبه بأداء التنيه
والاستفاطر في العربية. وقرب من هذا الوجه ما ذهب إليه بعض المستشرقين
من الفرنجة وهو أن ذكر هذه الحروف الساذجة في أوائل السور إنها هو توطئة
لتلاوة السور بيانًا وجهة اللحن الذي سيكون عليه إيقاع نغماً، وعلم هذا
الرأى قد سر إلىهم من وقوع القرآن والقراء في بعض السور على وقع
الروى الذي يليه في نهاية هذه الحروف الفواتح مثل السلم... هدى
لمتقين... وما يسطرون: ص... في عزة وشقاق ولكن
هذا لا يسقيم لهم في مثل ق... والقرآن المجيد... الر... الكتاب المبين
المص... وذكرى للمؤمنين. وهو يعد فرض استقامته إنها يكون من
المقاصد الثمينة لا الأصلية كم تقرر في الوجه الذي قبله.

(1) الجمعة: 2.
(2) يوسف: 40.
القول الثالث

وهو مذهب الصوفية، ويروى عن بعض السلف، ويذكر شيء منه عن علي بن إسرائيل، أن هذه الحروف قد نقلت عن معانيها الأصلية إلى معان
اصطلاحية جديدة وضعت لها، وإما بجملتها وإما بآحادها قالوا: وإننا
سكت النبي صلى الله عليه وسلم عن بيان تلك المعاني تيسيرًا وتوسيعة على
الناس يجعلها مجالا لاجتهاد المجتهدين، وذلك إما بناء على أن هذه الفوائد
ليست من المتشابه أصلاً، وإما بناء على أن المتشابه ما يعلمه الراسخون في
العلم.

وقد اختلاف أصحاب هذا القول على آراء كثيرة يمكن ضبطها في أربع

شعب:

الشعبة الأولى: تزعم أن كل فائقة على حديثها تدل بجملتها على معنى
مفرد، وذلك أنها جعلت اسيا عليها. إما على السورة التي هي فيها كما روي
عن زيد بن أسلم ونقل (1) عن الخليل وسبيروه ونسب إلى جهور المفسرين،
إما على القرآن كله. كما روي عن السدري وقتادة، وإما على الله تعالى كا
روي عن ابن عباس بسند صحيح.

وروت عن علي (2) أنه كان يقول: ياجمهعسق، ياجمهعسق إغرفر لي
قالوا: ولا حرج في اللغة على واضعي الأعلام، فإن لكل أحد أن يسمع ما شاء

(1) تأويل بعضهم هذا النقل قالتا: إن معناه أنه لما غلب استعمالها في قول القائل: قرأت جم
الدخلان وقرأت المبرة صارت كالاعلام بالغة على سورها، وهذا كث تكون: قرأت بنت سعاد
وقرأت قل هو الله أحد أي قرأت القصيدة أو السورة التي أولاها لأي صارت أعلامًا بالنقل
والوضع الجديد أه.

(2) تأويل 한 البضاوي: هذا النقل قال: لعله أراد: يا يامثلي أو يامثلي معناها مثلا؛ لأنه لا يظهر
للتسوية بها معنى مناسب في العربية بخلاف سائر الأشياء الحسن.
أي شاء، ولو أن يسمى بيت من الشعر ومن هنا تقول: إن الأعلام لا تختص بلغة.

الشعبة الثانية: تزعم أن كل فاقعة منها تدل في جملتها بحساب أعداد حروفها وفقاً لقاعدة الجمل على وقائع معينة في المستقبل كما قيل في الممَّ مَّ غلب الرومّ وكما قيل في حميسك، انظر الألوسي والطبري في تفسير السورتين.

الشعبة الثالثة: تزعم أن كل حرف منها له دلالة مستقلة إما بالإقطاع والنتحت من أسسائه تعالى أو صفاته أو أفعاله أو نحو ذلك كما روى عن ابن عباس أنه قال: الألف من الله واللام من لطيف واليم من مجيد والكاف من كبير، وروى عنه أنه قال في أمّ أئمّ أنا الله أعلم. وفي القرآن أرأى وروى عنه أيضاً أن الألف من الله واللام من جبريل واليم من محمد ومعنى أن الله أرسل جبريل على محمد وإما بالدلاليات الإشارية كما قيل في الممَّ مّ إن كل حرف منها رمز إلى حال من أحوال العبود في صلاته أو في سلوكه فالألف للقيام واللائم للركوع واللام للمسجود والألف للشريعة واللام للطريقة واليم للحقيقة.

الشعبة الرابعة: تزعم أن الدال هو مجموعة تؤخذ من الحروف المتفرقة في السور كلاً أو بعضها كما روى عن ابن عباس أنه قال: إن الراء والحم، وانّ مجموعها هو اسم الرحمن، وروى عنه أيضاً أن المقطعات كلها تتألف منها اسم الله الأعظم وكذلك قال سعيد بن جبير إنها إساه الله تعالى مقطعة لودحسن الناس تأليفها تعلموا منها اسم الله الأعظم. وذهب أبو العالية إلى أن مجموع

(1) قال البصراوي: إن ابن عباس لم يرد بذلك كله تفسير المراد، وإنما أراد التعبير على أن هذه الحروف هي مواد الأساني وبديع اللغات. وإنما ذكر منها إنها كان مما تايل بأمثلة حسنة لا يقصد التحديد بنيل اختلاف الحروف التي عندها.

75
الحروف المسرودة في أواخر السور إذا أحسنت بحساب الجملة دلت على مقدار عمر الأمة الإسلامية استنادًا إلى حدث رواه البخاري في تاريخه بسنده ضعيف أن بعض علماء اليهود فهم ذلك بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم فلم ينكروا عليه الرسول بل ضحك منه. و إن كان ضحكه يشمل الاستحسان لفهمه أو التعبير عن جهله. ولا أطيب على القرائي بسرد تفاصيل الآراء. فكأنى به قد فطن من غير الحديث إلى أن أقرب الأقوال إلى السلام وأيضا من الزلل هو الوقوف عند القول الأول فإن تجارزه إلى القول الثاني فامت القصد فيه هي الثلاثة الأول فإن حاول أن يأخذ شيئا من القول الثالث فحسبه مسحة الشعبة الأولى ولا سيما فرعها الأول. أما ما وراء ذلك من آراء فلا نرى عليها مسحة الفن بل نرى فيها أثر التخمين والظن ولا ينبغي للمؤمن أن يقول في شيء منها على التحكيم أنه هو مراد الله تعالى بالظن الراجح، بل البقية، إذ ليس لها في لغة العرب شاهد قوي يؤدها وليس لها في سياق القرآن قرينة تسندها.

ولا يقولن قائلي: إن هذه الأقوال كلها مروية عن السلف فقد روى عنهم أيضا السكت والوقوف على أنه ليس كل ما روى عن السلف صحيح السنن قطعى الدلالة، وإذا شت الاختلاف في المسألة عنهم بل عن كل منهم فقد أصبحت مسألة اجتهادية، ووجب على الناظر في أقوالهم أن يختر منتها أقواله مدركاً وأقرها إلى ذوق العربية والله أعلم ولا علم إلا ما علم، وصل الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم (٥).

(٥) هذا البحث لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد الله دازن تقييدًا لقرر جمعية كبار العلماء في ١٣ أكتوبر سنة ١٩٥١ أهدي إلى من الدكتور محمد محمود فضلي عميد كلية الشرعية والقانون بالأزهر. رحمه الله وغفر له.

٧٦
أسباب نزول القرآن

من الأبحاث الممتعة مبحث معرفة أسباب النزول ؛ لأن الباحث ينقب عن الأسرار الكامنة وراء كل آية أو كل سورة ، فإنتقل القارئ إلى تلك الأجواء النفسية ، والبيئة التاريخية التي نزلت بسبيها الآية أو الآيات .

وقد نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم في نيف وعشرين سنة ، يرد على أسئلة السائلين ويجيب استفتاء المستفتيين ، فإن المجتمع الإسلامي الجديد يحدث من الأمور فتحدث له من الأحكام ما يكون سببا في نزول الوحي بالآية أو الآيات التي تعرض للأحداث وتضع العلاج الشافي مما يكون سببا في إزالة الحيرة ، وسلوك الطريق الأقوم في ظل ذلك المنهج الأمثل الذي تسبب في سعادة الأفراد والجماعات في الدنيا والأخرة . وليس لكل آية من الآيات سبب خاص بنزولها ، فإن من القرآن ما نزل بشرح الدعوة والإرشاد إلى هديا البشرية، وتنظيم حياتهم وإصلاح شؤونهم ، وأغلب هذا النوع يشتمل على آيات العقائد والأحداث السابقة في العصور الغابرة وقصص الأنبياء ومشاهد القيامة . كما أن من الآيات القرآنية ما نزل لأسباب تتعلق بأحكام العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية والغزو والجهاد والحقوق والواجبات والمعاهدات الداخلية والخارجية . ومعرفتنا لهذه الأسباب تبين كثيرا على فهم تلك الآيات التي نزلت فيها ، وقد لقي هذا النوع من سلف الأمة وخلفه عناية خاصة بما أفرد له .

77
بالتأليف جمعة سخرهم الله لحفظ أسابيع نزول آياته كما حفظ كتابه، ومن هؤلاء على بن المدينى شيخ البخارى والواحدى والجعيرى وأبن حجر والسيبطى وغيرهم.

والمواد بسبب النزول كا يقول صاحب مناهل العرفان هو ما نزلت الآية أو الآيات محدثة عنه أو مبينة حكمه أيام وفوقه، كا أنها تساعد على حفظ القرآن ويسير فهمه وثبتت الوعى في ذهن السامعين، إذ في ذلك ربط الأسباب بالمسببات والاحكام بالمناسبات، والحوادث بالأشخاص والزمان والمكان، فسهل على المؤمن تذكرها وروائها، ولذلك فإن الطريق الأمثل لمعرة أسابيع النزول هو النقل عن الصحابة رضوان الله عليهم الذين عاصروا الوعى والنزل، ووقفوا على الظروف والملابسات والأحوال التي ألمت بنزول الآيات، فقد سمعوا بهذين ودعوا بقلوبهم ونطقوا بألسنتهم فعنهم يؤخذ هذا العلم وإلى هذا أشار الواحدى بقوله : لا يحل القول في أسابيع نزول الكتاب إلا بالرواية والصواع ممن شاهدوا التنزل ووقعوا على الأسباب وبحثوا عن علمها وجدوا في الطلاب. (1)

كما يقول : لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها، وقول ابن دقیق العبد.

5 معرفة أسابيع النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن وعلى هذا يقول الصحابي الذي شهد التنزل في سبب النزل يوضع في الدرجة الأولى من القبول؛ لأن قوله بعد حدثه مسندًا له حكم المرفع، قاله ابن الصلاح والحاكم وغيرهما في علوم الحديث. (2)

(1) أسابيع النزول للواحدى : 4
(2) الإتقان للسيبطى 1 / 52

78
أما ما رواه التابعٌ من أسباب النزول لما لم يذكر فيه اسم الصحابي فهو
حديث مرسٍل، والمرسل كلها ضعيفة باستثناء بعضها، فلا يقبل قوله إلا إذا
عضده مرسٍل آخر، رواه أحد أئمة التابعين الذين ثبت أخذهم عن الصحابة
كمعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحسن البصري، وتزاهر الأحاديث
الضعيفة على قول واحد يقوى بعضها بعضاً، فيصير الضعيف حسنًا والحسن
صحيحًا. . . إخ
ولا مجال للرأي أو الاجتهاد في أسباب النزول، ومن أخطط هذا العلم من
الصحابة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
روى البخاري في صحيحه عنه قال: "وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ مَعَهُ مَنْ أَنْزِلَت
سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا
أعلم فيمن أنزلت ولو أعلم أحداً أعلم منه بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت
إليه".
ومن فوائد الإمام بأسباب النزول الاستعانة على فهم الآية وإزالة اللبس
والأشكال في فهمها ومثال ذلك قوله تعالى: "فَاللَّهُ يُسِرُّ من المحيض
. . . الآية (1)."
أشكال هذه الآية معنى الشرط في قوله تعالى: ( إن ارتبت ) على بعض
الأمة حتى قال الظاهرية: إن الآية من المحيض لكبَر أو صغر لا عدة عليها
إذا لم ترتب ( أي شك ) فوزال هذا الإشكال شرب نزل الآية، وإليك البيان:
لما نزلت الآية التي في سورة البقرة في عدة النساء، قالوا قد بقي عدد من
عدد النساء لم يذكرن، الصغار والكبار، فنزلت الآية التي بين يديك أيها
القارئ الكريم.

(1) الطلاق : 4.
فالآية خطاب لم يعلم حكم الصغار والكبار فقوله ( إن ارتمي ) أي إن جهلهم حكمهم في العدة فقد عدثاها ثلاثة أشهر. هذا في اللاتي يسن ثم قال سبحانه : واللاتي لم يحضن . هذا مبتدأ خبره حذف تقديره حكمهم كذلك أي عدتهما ثلاثة أشهر . فعلم من ذلك أن المارد بالشرط الأردية في الحكم لا في اليأس . قاله ابن حجر (1)

كما أن من فوائد أسباب النزول الإعانة على فهم الحكمة التي يتضمنها التشريع ، وفي ذلك الخير كل الخير للمؤمن وغيره .

أما المؤمن فيزداد إيانا ، وأما غير المؤمن فيسوقه ذلك إلى الإيان بالله تعالى ، كظهور الحكمة في تحريم الخمار بعد معرفة سبب التحريم ، وهو الوقوع في العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وذهب العقل والوقار وضياع المال والصحة فيها لا فائدة ترجي منه .

كما أن من فوائد أسباب النزول أيضا تخصيص الحكم بالسبب عند من يرون أن العيرة بخصوص السبب لا بعموم اللظف ، فآيات الظهار نزلت بسبب ظهار أوس بن الصامت لما ظاهر من زوجته خولة بنت ثعلبة ، واستبان الحكم في هذه الآيات الكريمة من سورة المجادلة ، وبناء عليه فإن الحكم المستفاد لا يتعدى تلك الحادثة ، وحكم الظهار في غيرها يمكن معرفته بدليل آخر قد يكون قياسا أو غيره . ومن المسلم أنه لا يمكن معرفة المقصود بهذا الحكم أو القياس عليه إلا إذا علم سبب نزول السبب وبدون العلم به تصير الآية معططة .

وهنا وقفة أمام قاعدة العيرة بخصوص السبب لا بعموم اللظف ، الحق الذي لا مراه فيه أن ارتباط الآيات بسب النزول لا يجعله قيدا لها وحاجزا

(1) فتح الباري : 395 / 11
عليها، فسبب النزول وإن كان مفتاح الفهم، إلا أنه يفتح الباب على مصيره لتناول الآيات المرتبطة بسبب النزول، وكلما يشبه هذا السبب فهو في الحقيقة مثل مضروب لتثبت قاعدة معينة، وبناء عليه يكون أصح الأقوال: أن العمرة بعوم اللظاف لا بخصوص السبب، وبهذا قال المحققون من العلماء، فإن كانت بعض الآيات قد نزلت في ظروف خاصة، خصوصا إذا كانت متعلقة بذكآئ شخصين مثلا، كآية الظهار وآية اللعن وآية الكلة وحادثة الإفك، فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم فإن هذا لا يقول به مسلم ولا عاقل على الإطلاق.

قال السمطي: اختالف أهل الأصول. هل العمرة بعوم اللظاف أو بخصوص السبب؟ والأصح عندنا الأول.

ومن الأدلة على اعتبار عموم اللظاف: احتجاج الصحابة رضوان الله عليهم في وقائع بعوم آيات نزلت على أسباب خاصة، وكون ذلك شائعًا بينهم، قول عبد بن كعب القرظي فيها يرويه عنه سعيد المقرى: إن الآية نزلت في الرجل ثم تكون عامة بعد. تأمل مع أن آية الغارى الكرم سورة المنافقين. تلك السورة التي تتضمن حملة عنيفة على أخلاقهم وأكاذيهم ودسائهم ومناوراتهم وما في نفوسهم من البغض والكيد للمسلمين ومن اللوم والجهل وانطاب الصبر والقلب.

إن السورة ترسم صورة فريدة مبعدة; يثير الهزء والسرخية من هذا الصنف المطموح المسوخ، وتصفهم بالفراغ والحنو، بل تنصبهم مثلاً وhéذا في معرّض الوجود. وإذا رأيتهم تعجج أجسامة وان يقولوا تسمع لقولكم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرواهم قاتلهم الله أنت يهابون. 

فهي أجسامة تثير الإعجاب، لا أشخاص تجاوب. وما داموا صامتين.
فهم دُمِّي تتثير الانتظار لكنها إذا تكلمت فهي كالجبل يتمخض فيلد فأذا.. نطقهم خاوة من كل معني ومن كل حس ومن كل خلاصة تخلت بها صدورهم تسمع لقومهم كأنهم خشب، ولكنها ليست خشبا فقط بل خشب مسندة لا حركة لها، يستندها جدار، جدار مائل سرعان ما يبوي بها في مكان سحيق، يحسون كل صيحة عليهم، لأن ستارهم الوقيف من التظاهر والخلف والملع والالتجوء بجعلهم في ارتباك دائم، يغشون بين لحظة وأخرى أن يكون أمرهم قد افطض وأن سترهم قد اكتشف، والتصوير القرآني المبدع يرسمهم متفقين حولهم في عيون زائفة، ونظرات تائهة يتوجوسون خيفة من كل حركة.. ومن كل صوت.. ومن كل هاتف، يحسون الطارق طالبا لهم بعد أن عرفت حقيقة أمرهم.. إن هؤلاء المتضنين في صفوف المسلمين يعيشون في حياة الرسول قرابة عشر سنوات يعيشون في الأرض فسادا.. قد لا يعرفون بأسيائهم.. ولكن بلحق أفعالهم والتواثر.. تعرفهم بسياهم.. وجهه تعلوها ظلما كفر قد أبطنه.. ظلم قد مارسه.. ونسق قد عاشوه.. إن هذه السورة بصورها المتعددة وإن كانت قد نزلت في منافقة الأوس والخزرج إلا أن صلاحية القرآن لكل زمان ومكان جعلت هذه السورة عامة شاملة، ونحوها خالصا خالدا شاخصا من مضى ولن يجيء من هذا الصفح إلى قيم الساعة.. وإن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تركهم تفضحهم سلوكاهم.. إلا أنه كان يعرفهم ويخص بعض أصحابه كحليفة ابن 앓ار وغيره بسمعة أسيائهم.. إلا أننا في مجتمعنا هذا وبعد انقطاع الوعي يجب أن نتشعر بهم ونفضحهم ونكشف أعياءهم التي يمارسونها ضد الدعوة الإسلامية ونظهر صورنا منهم.. وذلك نوع من الجهاد واجب على كل مسلم بعينه.. حتى نعيد للإسلام جداره المشروخ بعد نقص هذا البناء الشامخ حرا حرا.. ونذهب إلى رسول الله يوم القيامة ليباهى لنا الأمام.. لا أن نسود وجهه ونلطخ سمته بالترقص عن جمل الراية الإسلامية بعد
وقوعها على الأرض بأيدي أهلها وأعدائها متعاونين ولا حвол ولا قوة إلا بالله
العلم العظيم.

ومن أمثلة ذلك آية الظهار التي نزلت في خولة بنت ثعلبة - وأوس بن الصامت وعمت بعد ذلك - وكآيات تحريم الحمر.

تعدد الأسباب والنزل واحد

قد ترد روايات متعددة في أسباب نزول الآية وتذكر كل رواية سببا صريحا
غير ما تذكره الأخرى.

ويرى المحققون أن المقاييس الدقيقة في ترك هذه والأخرى بثلك ما يلي:
إذا كانت إحدى الروايتين صحيحة والأخرى غير صحيحة اعتمدنا على
الأولى وردنا الثانية.

ومثال ذلك ما ورد في الصحيح أن سبب نزول سورة والضحي هو تأخر
الوحي علّ النبى صلى الله عليه وسلم حتى أرجف المرجفون بقولهم: ودع
محمدًا ربي وقلاة نزلت السورة ... كما ورد أن سبب نزولها تأخر الوحي لوجود
جرة تحت سرير النبي فمات فمكث النبي صلى الله عليه وسلم أربعة أيام لا
ينزل عليه الوحي.

والمعلول على ذلك في بيان السبب الرواية الأولي لصحتها أما الثانية فقد
ردت لأن في إسنادها من لا يعرف (1) فإذا صحت الروايتان كان لإحداهما
مرجع انتمائنا في بيان السبب على الراجحة دون المرجحة. ومن أسباب
الرجح أن إحدى الروايتين أصح من الأخرى أو أن الراوي كان حاضراً

(1) انظر الإتقان: 122، ومناهل العفان: 117/1.
للواقعة أو غير ذلك من أسباب الترجيح ومثال ذلك ما أخرجه البخاري عن
ابن مسعود قال: كنت أمشى مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتوكأ على
عسيب فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم: لو سألتموه عن الروح فقام ساعة
ورفع رأسه فعرفت أنه يرحي إلى حتى صعد الوجهي ثم قال: قل الروح من
أمر ربي وما أوتيم من العلم إلا قليلا 

(1) وما أخرجه الترمذي وصحيحه عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود
أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل فقالوا: سلو عن الروح فسألوه فأنزل الله تعالى:

ويسألونك عن الروح ... الآية

الخبر الثاني يدل على أن القصة نزلت بمكة وسبب نزولها سؤال قريش
أما الخبر الأول فصرح بأنها نزلت بالمدينة وسبب النزول سؤال اليهود فأنزل
الأول يفرق الثاني بمرجحين:

أحدهما أنه رواية البخاري لأن الثاني رواية الترمذي والمرجح الثاني أن
الراوي وهو ابن مسعود كان حاضراً الواقعة.

إذا تساؤلت الروايتان في الصحة ولا مرجح لإحدهما على الأخرى وأمكن
الاخذ بهما للاقتراب الزمنين أخذنا بهما وحكمنا بنزول الآية عقب حصول
السببين كليهما.

ومثال ذلك قوله تعالى: والذين يرمون أزواجهم ولم يكون لهم شهاداء إلا
أنفسهم ... الآية

سبيب نزول الآيات قدف هلال بن أمية أمرائه بين يدي النبي صلى الله عليه

---

(1) الإسراء : ۸۰
(2) النور : ۶

84
 وسلم .. ثم تسأل صحابي آخر يقال له عويمر فنزلت الآيات جواباً على سؤال الاثنين فالأولى رواية البخاري والثانية رواية مسلم وقد أخرج الشيخان الروايتين -هـ سعد الساعدي.

فالروايتان صحيحتان وقد بينت إحداهما أن سبب النزول هو هلال بن أمية وبينت الأخرى أنه عويمر ولا مرجح لإحدى الروايتين على الأخرى فلا يجوز الأخذ بواحدة منها بل يجب الجمع بينهما .. أما طريق الجمع فلان السائل الأول هلال والثاني عويمر فنزلت الإجابة للاثنين معا .. ولله هذا جلح النووي في شرحه على صحيح مسلم بقوله:

ويحتم أنها نزلت فيها جميعا فجعلها سألا في وقتين مثنايين فنزلت الآية فيها ..

- استواء الروايتين في الصحة ولا مرجح لإحداهما ولكن الزمن متباعد بين السببين فالحكم يكون بنزول الآية عقب كل سبب منها ويحمل الأمر على تكرار النزول ولا باس من ذلك فقد ينزل الشيء مرتين تعظيما لشأنه وذكيرا عند حدوث سبب خوف نسيانه .

ومثال ذلك ما أخرجه البهذيق بالبزاز عن أبي هريرة في قصة استشهاد الحمازة وقال النيب صلى الله عليه وسلم لأمثنان بمعين منهم فنزل قوله تعالى:

"فإن عاقبتم فعاقبوا بهم ما عوقبتم به ..." آخر سورة النحل .

وما أخرجه الترزمى والحاكم عن أبي بن كعب أن لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون ومن المهاجرين ستة منهم الحمازة فلمروا به فقالت الأنصار: لعن أصحابنا منهم وما مثل هذا لزبيبين (أي لنزيدن عليهم) فلما كان يوم فتح مكة نزلت الآية: "فإن عاقبتم" فالروايتان تدلان على النزول ، لكن الأولى في أحد والثانية في فتح مكة ، والزمانان متباعدان وبعد أن يكون نزول

85
الآية كان مرة واحدة عقبيها لبعد ما بينها، فتحتم القول بأن النزول تكرر
بتكر السبب والحكمة فيه ما علمت أيها القارئ الكريم.

تعدد النزول والسبب واحد

قد يتعدد المنزل والسبب واحد، ولا منع من ذلك لأنه لا يتأتي حكمة
الحكيم سبحانه وتعالى في إقناع الناس وهدایة الخلق وبيان الصواب عند إشكال الأمر
والوقوف عند حد ما أمر الله به سبحانه وتعالى.

ومثال ذلك ما أخرجه الترمذي والحاكم عن أم سلمة رضي الله عنها أنها
قالت: يا رسول الله! لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة.

فنزل قوله تعالى: فأستجب لهم ربه أنى لا أضيع عمل عامل منكم
من ذكر أو أنى بعضكم من بعض (1) الآية. كأن أخرج الحاكم عنها
أيضا قالت: قلت يا رسول الله تذكر الرجال ولا تذكر النساء فأنزل الله تعالى:
(2) إن المسلمين والملائكة. الآية.

كأن أخرج الحاكم عنها أيضا أنها قالت: تغزو الرجال ولا تغزو النساء وإنها
لنا نصف المرات فأنزل الله سبحانه: ولا تتمموا ما فضل الله به بعضكم على
بعض (3) الآية.

---
(1) آل عمران: 195.
(2) الأحزاب: 135.
(3) النساء: 32.
عموم اللطف وخصوص السبب وثب الصلة ويبذل القرابة بعلم أسباب النزل، وعموم اللطف وخصوص السبب قسم من أقسام اللطف الوارد على سبب، وقسم غيره من تلك الأقسام الأربعة التي لا تزيد القسمة العقلية عليها ولا تنقص منها وإليك بيانها.

1- عموم اللطف وسبيه:
ومثاله: { ويسألونك عن اليتامى فقل إصلاح لهم خير} (١).

2- خصوص اللطف وسبيه:
ومثاله: { ويستجنها الأنتى الذي يؤتي ماله يتزكي} (٢) بناء على أن (ال) في الأنتى للعهد والمعهد هو الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه.

3- خصوص اللطف وعموم سبيه:
وهذه القسم مختلف فيه، فقيل بعدم جوازه من الناحية البلاغية وإن جاز عقلا، وعدم الحوار بلاغة لعدم وجود التطابق بين السؤال والجواب أي بين

(١) البقرة : ٢٢٠ ، (٢) الليل : ١٧ ، ١٨.
السبب واللفظ النازل، كمن يسأل مثلًا عن جواز فعل المسلمين لشيء ما فتكون الإجابة يجوز لفلان أن يفعل كذا، ثم يترك حال الباقين، وهذا لم يقع هذا النوع في بليغ القول من الكتاب والسنة (1) ويقول بجواز مطلق ومثل له الشوكلاني بالسؤال عن أحكام المياه في قول الشارع: ماء البحر طهور، جواباً عن ذلك السؤال فيختص بياها البحر ولا يعم بلا خلاف (2).

وفيد بعضهم هذا القسم بشروط ثلاثة هي:

١ - أن يكون في الذكر تنبه على ما لم يذكر.
٢ - وأن يكون السائل مجهذًا.
٣ - وألا تفهم المصلحة باشتغال السائل بالاجتهاد.

٤ - عموم اللفظ وخصوص سببه:

ويوم أن الأقسام وأوافها بالغرض لكونه محض خلاف العلماء، فالأجمهور على أن العبارة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ومثلوا لذلك بقوله تعالى:

والأولين يظهرون من نسائهم ما هم أمهاتهم ... الآية وردت بصيغة العموم لتتصدرها باسم الوصول وهو من صيغ العموم ويدخل تحته من نزل النص بسببه وهي السيدة خولة وزوجها أوس بن الصامت دخولاً أولاً، كما يدخل غيرها بمقتضى العموم لأن العام للفظ يستغرق الصالح له، أما غير الأجمهور فيقصرون اللفظ على سببه كما سبق بيانه ثم يكون الدليل بقياس أو غيره ويتعدى الحكم للحالة الجامعة بين المقيم والمقيس عليه.

(1) انظر الدخول: ص 117.
(2) علم القرآن للدكتور الكومي رحمه الله تعالى ص 27.

88
الطلاق والمقيد

معنى المطلق: هو الكلي الذي لم يدخله تقسيم، فلذلك لا يكون الإنكرة لشيوبهما، ولم يقترب به ما يدل على تقسيمه بصفة من الصفات أو شرط من الشروط فالنافذ تدل على فرد أو أفراد غير معينة مثل:

رجل ورجل وكتاب وكتاب وطائرة وطائرة وحيوان وحيوانات.

معنى المقيد: هو الذي دخله تقسيم، ولو من بعض الوجوه كالشرط والصفة وغير ذلك. مثاله: رجل مؤمن، ورجال مؤمنون، وكتاب كريم، وكتاب قيمة، وطائرة جريحة وطائرة جارحة، وحيوان ناطق وحيوانات أليفة.

وهذه النافذ تدل على فرد أو أفراد غير معينة ولكن اقترب بها لفظ بدأ على تقسيمه بصفة من الصفات.

حكم المطلق

إذا ورد الخطاب مطلقًا لا يفيدها له حمل على إطلاقه تالي: كلمة "أيام" في الصيام أطلقته ولم يرد دليل على تقسيمه في قوله تعالى: ۚ ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخرى (1).

(1) البقرة: 185.
فإنها وردت مطلقًا عن التقيد بالتابع، ولم يرد في نص آخر ما يقيده ولم يتم دليل يدل على تقييدها بذلك فيعمل بها على إطلاقها ومقتضي ذلك أن من أفطر في رمضان لمرض أو سفر لا يجب على صيام ما أفطر من الأيام متباطعات؛ بل أن يصومها متابعة وله أن يصومها مفرقة.

أما مثال المطلق الذي ورد في نص مطلقًا ولكن قام الدليل على تقييده كلمة وصية في قوله تعالى: { من بعد وصية يوصي بها أو دين } فإنها وردت مطلقًا عن التقيد بمقدار معين من التركة، ولكن قام الدليل على تقييدها بالثلث وهو ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله مانعًا لسعد ابن أبي وقاص من الوصية { أكثر من الثلث فقال له: } { الثلث } والثلث كثير . . الحديث، فتكون المراد من الوصية في الآية الكريمة الوصية في حدود الثلث عملاً بالدليل الذي ذكر على ذلك.

حكم المقيق

إذا ورد مفيضًا في نص، ولم يرد مطلقًا في نص آخر فإنه يعمل به على تقييده، ولا يصح إلغاء ما فيه من القيد إلا إذا قام الدليل على ذلك.

مثال المقيق الذي لم يتم دليل على إلغاء ما فيه من القيد صيام شهرين في كفارة الظهر.

فمن لم بِدِّ في صيام شهرين متابعين من قبل أن ينسى { فالصوم ورد مقرنا بالتابع} فكان قيدًا له فلا يصح في كفارة الظهر الصيام المفرق وأن يصوم قبل أن يستمتع بزوجته فلا يصح الصيام بعد الاستمتع والإنسكان متابعة. . فالقيد إذا شمل أمرين:

(1) آية 11 سورة النساء.
(2) سبب السلام حج/159.
أحدهما: صيام شهر متتابعين
والثاني: من قبل أن يتساءل
أما مثال المقيد الذي قام دليل على إلغائه كلمة (ربابكم) عند قوله تعالى: "وربابكم التي في حجوركم من نسائكم التي دخلتم بينهن"، فإن الكلمة (ربابكم) وردت مقيدة بالحجاره أي في رعاية زوج الأم في بيته وقد قام الدليل على إلغاء هذا القيد في قوله تعالى في نفس الآية: "فإن لم تكونوا دخلتم بينهن فلا جناح عليكم" فإن إلغاء هذا القيد يدل على حك التزوج بالرتبة عند عدم الدخول بالأم والقاعدة الفقهية تقول:

العقد على البنت يحرم الأمهات، والدخول بالأمهات يحرم البنات.

وإذا ورد اللفظ مطلقًا في نص ورد بعينه مقيدًا في نص آخر فهل يعمل بكل منهما في موضعه الوردد فيه أم يحمل المطلق على المقيد ويكون المراد به هو المقيد؟

الجواب على ذلك أن هذين النصين الوردين إما أن يتحد السبب والحكم فيها في مثل قوله صلى الله عليه وسلم ممن أفترى في نهار رمضان عامداً: "أعتق رقية وأصم شهرين أو أطعم ستين مسكيناً" وقوله صلى الله عليه وسلم لأعرابي آخر: "فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟"

في هذه الحالة اتحد السبب وهو الإفطار المعتمد في نهار رمضان، واتحد الحكم أيضًا وهو صيام الشهرين لكن الصيام ورد مطلقًا في الحديث الأول بذلك جواز صيام الشهرين متفرقين لكن قيده في الحديث الثاني بالتتابع يجب حمل أحد النصين على الآخر دفعاً للتعارض فيحمل المطلق على المقيد ويتعين على من أفترى في نهار رمضان صيام شهرين متتاليين لا متفرقين.

الحالة الثانية: اتحاد السبب واختلاف الحكم في النصين وذلك في التطور.
بالوضوء عند قوله تعالى: "إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المراكف".

و觑 التيم: "فلم تجدوا ماء فطيباً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه" (1).

فاللفظ ورد مقيداً في الوضوء بكونه إلى المراكف، وأطلق في التيم فاتح.

السبب في النصين وهو إزادة الصلاة عند وجود الحدث واختلاف الحكم فيها.

ففي النص الأول وضوء وغسل للبد بالباء وفي النص الثاني تيم ومسح للبد بالتراب.

والالتزام وسياج الأغلبية في هذه الحالة لا يحمل المطلق على المقيد لأنه لا

تعارض بين إطلاق مسح البد في التيم وقيد الغسل في الوضوء بكونه إلى

المراكف، وذهب أكثر الشافعية إلى حمل المطلق على المقيد في هذه الحالة

للارتباط بين النصين بوحدة السبب.

الحالة الثالثة: اختلاف السبب واتحاد الحكم في النصين مثله قوله تعالى في

كفرة القتل الخطأ: "ومن قتل مؤمناً خاطأ فتحرير رقبة مؤمنة" (2).

وفي كفرة الظهر: "والذين يظهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا

فتحرير رقبة من قبل أن يتيمها" (3).

ورد الفاظ في الآية الأولى مقيداً بالإيان وأطلق في الآية الثانية، وقد اختلف

السبب في النصين فإن القتل خطأ في الآية الأولى، وإزادة العودة من المظاهر

إلى مخالفتها زيتته في الآية الثانية.

وقد اختلف العلماء في هذه الحالة قذهب الشافعية إلى حمل المطلق على

(1) المائدة: الآية 6.
(2) النساء: 92.
(3) المجادلة: 32.
القيد عند اتحاد الحكم واختلاف السبب لظهور رغبة الشارع في تحرير رقاب المؤمنين فيحمل المطلق في كفارة الظهار على المقيد في القتل الخطأ لأن الإيجاز من الإعجاز فذكر القيد في موضع يغني عن ذكره في موضع آخر، وكلام الله تعالى واحد يفسر بعضه بعض.

وذهب الحنفية إلى عدم حمل المطلق على المقيد في هذه الصورة لعدم وجود ما يدعو إلى ذلك وليس ثمة من تعارض بين تحرير الرقبة المؤمنة في كفارة القتل الخطأ وتحرير رقبة مطلقًا مؤمنة أو غير مؤمنة في كفارة الظهار. وأن اختلاف سبب الكفارات هو الذي دعا إلى الإطلاق في الظهار والتقيد في القتل الخطأ، فالمناسب للظهار التخفيف فأتطلقت الآية والمناسب لقتل الخطأ التشديد؛ لأنه أضحى نفسا مؤمنًا فوجب التعريف بأخرى من نفس النوع ثم ترد إليها حريتها وما يؤيد التشديد في قتل الخطأ وقتت عند صيام شهرين والتساهل في كفارة الظهار أنها تجاوزت الصيام إلى أمر أخف منه وهو إطعام ستين مسكيناً.

الحالة الرابعة: اختلاف السبب واختلاف الحكم في النصيب مثل قوله تعالى: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ (2) و قوله تعالى: ﴿أياً الذين آمنوا إذا قامتم إلى الصلاة فاغسلوا ووجهكم وأيديكم إلى المراقب﴾ (3).وردت اليد مطلقة في آية السرقة ووردت مقيدة في آية الوضوء بكونها إلى المراقب.

اختفى سبب الحكم في الآتيين فنسب الحكم في الأولى السرقة وفي الثانية

(1) انظر نيل الأوطار للشوكاتي: ٦ /٢٩٢.
(2) الماذارة: ٣٨.
(3) الماذارة: ٦.
إرادة الصلاة مع وجود الحدث كما اختلف الحكم فكان قطع اليد في السرقة
وغسل اليد في الوضوء.

وقد اتفق العلماء على عدم حمل المطلق على المفيد في هذه الحالة لعدم وجود
تعارض بين النصين و وعدم وجود رابطة بينها لاختلاف السبب والحكم فيها
فلم يكن هناك ما يدعو إلى ذلك.

وكان مقتضى ذلك أن تقطع بد السارق كلها عملا بالإطلاق في آية السرقة
لكن هذا الإطلاق قد ورد في السنة ما يدل على تقييده بالكفين وهو ما روى أن
النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقطع اليد السارق من الرسغ. والله أعلم.
العاصم

هو اللفظ الموضوع لمعنى واحد ليسحتم جميع الأفراد التي يصدق عليها.

معنى هذا الفظ من غير حصر في عدد معين.

أما الخاص فإنه يدل على فرد واحد أو أفراد محدودين فقط (كل شيء) في قوله تعالى: «وَللهُ بِكُل شَيْءٍ عَلِيمٌ» لفظ عام يشمل جميع الأشياء دون أن يخرج فرد منها ودون أن تكون محصورة في عدد معين.

1 - ومن ألفاظ العُموم لفظ (كل) ولفظ (جميع) في مثل قوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرُؤٍ بِهَا كَسْبٌ رَهْيَنَّ﴾ وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾

2 - الجموع المعرف بالجنسية التي تفيد الاستراق مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحِسَّنِينَ ﴿(3) ﴿فَيَدخُلُ فِيهِ كُلُّ مُخْسِنٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَرْضُ أُولَادِهِنَّ﴾ يرثون أولادهن ﴿(4) ﴿فَيَدخُلُ فِيهِ كُلٌّ وَالْدَّةً﴾.

3 - الجموع المعرف بالإضافة: مثل قوله تعالى: ﴿يَسِيَّرُكُمُ اللَّهُ فِي أُوْلَادِكُمْ﴾ للذكر مثل حظ الأثريين ﴿(5) ﴿فَيَدخُلُ فِيهِ جَمِيعِ الْأَوْلَادِ﴾.

---

(1) البقرة : 21 .
(2) البقرة : 29 .
(3) البقرة : 233 .
(4) النساء : 11 .
4ـ المفرد المعرف بالجنسية التي تفيد الاستغرام مثل قوله تعالى:
(1) فتشمل كل سارق وسارقة و(2) فتشمل كل الأفراد في عدد معين.

5ـ المفرد المعرف بالإضافة: قوله تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾ فإنه يشمل جميع الأوامر.

6ـ الأشياء الوصولية: قوله تعالى: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة﴾ فإنه يشمل كل قاذف.

7ـ أسباب الاستفهام مثل قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا﴾ فإنه يشمل كل مقرض.

8ـ النكرة في سياق النفي أو في سياق النهي أو الشرط مثل قوله صلى الله عليه وسلم: ﴿لا وصية لوارث﴾.

وقوله تعالى: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا﴾ (5).

وقوله تعالى: ﴿إنا جاءكم فاستقبلي فتبينوا﴾ (6).

فالحديث يشمل جميع الوصايا لوقوع لفظ وصية بعد النفي إذا تشمل الآية الأولى جميع المنافقين لوقوع لفظ (أحد) بعد النهي وتشمل الآية الثانية جميع الفاسقين لوقوع لفظ (فاسيق) بعد أداء الشرط (إن).

لفتتية

النكرة في سياق الإثبات لا تفيد العموم مثل قوله تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقو ما عاهدوا الله عليه﴾ فلفظ رجال نكرة ولكنه في سياق

(1) المائدة: 38. (2) البقرة: 63. (3) التور: 4.
الإثبات فلا تفيد العموم فإنما قلت: فكيف بوصف أهل الجنة في تناول جميع أنواع الفاكهة في قوله تعالى: فقوم فيها فاكهة وهم ما يدعون. حيث أفادت العموم؟ قلت: إنما دلت عليها القرنوة لأن الآية واردة في معرض الامتنان من الله عز وجل على عباده وذلك مقتضى لوجود جمع الفواكه شمله جمع المذكر للإناث:

ذهب جمهور العلماء على أن جمع المذكر لا يشمل الإناث بحسب الظاهرة وإذا يشملون على سبيل التجليف إذا دلت على ذلك فتكون، وذهب بعضهم إلى شمول جمع المذكر للإناث مشاركته للذكر في الأحكام.

وتحدثت آراء العلماء في دلالة العلم على جمع أفراده وهل هي دلالة قطعية أو ظنية؟

العلماء في ذلك فريقان: ومنهم لهذا الخلاف بتحرير معله نقول:

العلم: مفرد كلفظ (من) في قوله صلى الله عليه وسلم: ما دخل دار أبي سفيان فهم أن يأفرده كل واحد.

ومفرد: كلفظ ( الطلاب) في مثل قولنا: الدولة ترعي مصالح الطلاب وأفراده أجل الجمع، وأقل الجمع اثنا.

دلالة العلم على نسب الحكم لواحد غير معين في العلم الفردي واجتماع غير معينة في العلم غير المفرد كالمثالين السابقين دلالة قطعية؟ لأن الواحد وأقل الجمع وهو اثنا لا يتحمل التخصيص شبه الحكم له مقطع به ولا خلاف في ذلك.

أما أكثر من الواحد والاثنين فذلك محل الخلاف.

الحنفية يقولون إنها قطعية، والشافعية يقولون إنها ظنية.

97
وقد استدل الحنفية على مذهبهم في قطعية دلالة العام على جميع أفراده بأن
اللفظ العام موضوع ليدل على جميع الأفراد فتكون دلالة قطعية. 
أما الشافعية فيقولون بأن كل عام يحتل التخصيص احتياجاً ناشئاً عن
دليل فإن العام يمكن تأكيده بأنفع التوكيد مثل: كل وجمع، والتأكيد
لرفع الاحتيال، ولا رفع إلا لشيء موجود كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُل شَيْءٍ﴾.

وقد شاع على ألسنة العلماء قولهم: ما من عام إلا وخصص. 

ثمرة الخلاف في دلالة العام
كان من ثمرة هذا التعدد في دلالة القطعية عند الأحناف وظنية الدلالة عند
باقى الفقهاء ما يأتي: 

يجوز عند الجمهور تخصيص العام الوارد في كتاب الله تعالى أو سنة رسوله
المترودة ابتداء بدلال ظنى كالقياس وخبر الآحاد ؛ لأن كلا منهما ظنى فعام
القرآن أو السنة المتوردة ظنى في دلالة، وخبر الآحاد ظنى في ثبوته، والقياس
ظنى أيضاً.

أما هذا التخصيص لا يجوز ابتداء عند الحنفية ؛ لأن العام قطعى في
دلالة، فلا يعارضه الدليل الظنى من قياس أو خبر آحاد.

ومن ثمرة هذا الخلاف صدور الحكم من الفقهاء على بعض المسائل
الفقهية مثل:

ذبيحة المسلم إذا ترك التسمية عمداً .

أجاز الشافعية الأكل منها لقوله صلى الله عليه وسلم: "ذبيحة المسلم

٩٨
حلال ؛ ذكر اسم الله عليها أو لم يذكر، وهو حديث أحاد خصص به العلوم الوارد في قوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا ما لم يذكر اسم الله عليه﴾ (1).

بينما حرم الحنفية الأكل منها استدلالا بعوم الآية وشملوها جميع الذبائح شمولًا قطعيا، فلا يخصصه الظني وهو خبر الأحاديث ثانيا: لا تعارض بين الخاص والعام عند جهور العلماء لأن الخاص قطعى والعام ظني، ولا يعارض الظني القطعى فيعمل بالخاص في نطاقه، ويعمل بالعام فيها وراء ذلك.

أما الحنفية فهناك وجود التعارض بين الخاص والعام فيها دل عليه لفظ الخاص لأن كلا منها قطعى.

---

(1) الأئمّة: 121.
الخصائص

عرف التخصص بتعريفات أدقاتا : ّ قصر العام على بعض أفراده ّ فهذا قصر الحكم الثابت للعام على بعض الأفراد التي يتناولها فهما : إذا قلت : أكرم العلماء ففهذا البارحة إكرام جميع العلماء فإنما قيدتهم بصفة العامين فقلت : أكرم العلماء العامين أو إن كانوا عاملين أصبح مفاد هذا التعبير قصر الحكم على بعض الأفراد من أهل العلم وهم من تحقق فيهم الوصف بالعمل دون من عداهم من الأفراد التي يتناولها لفظ العلماء إذ لا يزال لفظ العلماء متناولا للعامين وغيرهم ّ فالخصص أخذ من هذا هو ما يفيد قصر الحكم الثابت للعام على بعض الأفراد التي يتناولوا.

خصص القرآن بالقُرآن

جائز اتفاقا وقد وقع . اقرأ قوله تعالى : » والمطلقات يترجسن بأنفسهم ثلاثة قروء )1( تجدّه عاما لكل مطلقة حاملا كانت أو غير حامل . ثم اقرأ قوله تعالى : » والذين يتزوجون منكم ويذرون أزواجها يترجسن بأنفسهم أربعة أشهر وعشرا )2( تجدّه متناولا لكل متوفى عنها زوجها حاملا كانت أو غير.

(1) البقرة : 228 ـ (2) البقرة : 244.

100
حامل ثم اقرأ مع هاتين الآتيتين قوله تعالى: ﴿وأولئك الرجال يجمعون أجهلهن ان يضعن جملهن﴾ (1) تجد أنها مع الآية الأولى تخرج المطلقات الحوامل من الحكم الثابت للمطلقات ومع الآية الثانية تخرج المتوفر عنهن الحوامل من الحكم الثابت للزوجات المتوفى عنهن، فليس الحكم في المطلق الحامل أن تيرص ثلاث قروء، وليس الحكم في حق المتوفر عنها الحامل أن تيرص أربعة أشهر وعشرا وإنها حكمها في الحالين أن تنتظر وضع الحمل طالطة مدة الانتظار أو قصرت.

وأما تخصيص القرآن بالسنة المتواترة فقد حكى الكل الاتفاق عليه.

أما إن كانت غير متواترة من قبل الواحد فهي محل البحث.

تخصيص القرآن بخبير الواحد

تخصيص القرآن بخبار الواحد جائز. يقول ابن الحجاب: إنه الحق ويقول الأمدئ: إنه مذهب الأئمة الأربعة.

ونقل عن بعضهم أن ذلك غير جائز مطلقًا، والقائلون بالجواز هم الجمهور ويقولون إن ذلك قد وقع، ووقع من الصحابة رضوان الله عليهم، ولم يذكر عليهم هذا؛ فكان إجماعاً بالوقائع الدالة على ذلك كثيرة منها:

أنهم خصوا عموم قوله تعالى: ﴿فأحل لكم ما وراء ذلك﴾، بحديث:
لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها؛ كيا خصصوا عموم قوله تعالى: ﴿وحرصكم الله في أوالكم﴾، بما روى الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه: ﴿نحن معاشر الأنيباء لا نورث ما تركناه صدقةٍ وخصصوا عموم قوله ﴿

(1) الطلاق: 4.
(2) النساء: 24.
(3) النساء: 11.

101
 تعالى : "أحل الله البيع وحرّم الربا" (1) الحديث : لا تبيعوا الدرهم بالدرهمين، وخصصوا عموم قوله تعالى : " والسارق والصائبة فاقطعوا أيديهما" (2) الحديث : لا قطع إلا في ربع دينار.

كما أن العقل يقضي بأنه إذا اجتمع نصاب أحدهما عام والآخر خاص فالعمل بموجب الخاص متعين أو مترجح، لأن العمل به عمل بالدليلين، وعدم العمل به ترك لأحدهما، والأول أحق بالاتباع من الثاني.

ومن ذهب إلى عدم الجواز يقول: العام قطعي، وخبر الواحد ظنى فلو خص القطعي بالظنى لكان ذلك ترك قطعي للعمل ينطى وذلك باطل。

وتأيد هذا يا نقل أن عمر رضي الله عنه رد خبر فاطمة بنت قيس أن لها السكنى والثقة ولم يعتبره خصصاً لعموم قوله تعالى: " أمسكوه من حيث سكتتم " (3). ثم لو جاز تخصيص القرآن بخبر الواحد لجاز النسخ به؟ فإن كلا منها بيان، والسخ به لا يجوز فتخصيص به لا يجوز أيضاً.

وهذا الاستدلال من القائلين بعدم الجواز مردوخ بها يلي: أن عمر لم يرد خبر فاطمة بنت قيس لكونه خبر آحاد، بل رده لأمر آخر بينه رضي الله عنه في قوله: " إننا لنندع كتاب رينا لقول امرأة لا ندرى أصدققت أم كذبت " وذلك واضح كل الوضوح في بيان علة الدخ، وأنها الترد في صدق الرواية وكلبها.

التخصيص بالقياس:

تخصيص القرآن بالقياس فيه مذاهب :

الأول: وهو رأى الأئمة الأربعة والأشخري إمام أهل السنة والجماعة

(1) البقرة: 275. (2) المائدة: 38. (3) الطلاق: 6.

102
الثالث: يجوز تخصيص القرآن بالقياس بعين الخفي وهو رأى ابن سريج الشافعي.

الرابع: يجوز تخصيص القرآن بالقياس إن كانت عليه منصوصة أو مجمعاً عليها، ولا يجوز إن تثبت العلة بغير ذلك.

والقياس بعين الخفي هو ما قطع فيه بنى تأثير الفارق بين المقتضى والمقيض عليه كقياس العباد على الأمة في تنصيف حد الرذاك لكل منها لاشتراكه في الرق أما الفارق بينها وهو الذكرية والأنثوئ نافذ تأثير له في الحكم.

أما القياس الخفي فهو ما لم يقطع فيه بنى تأثير الفارق بين المقتضى والمقيض عليه كقياس النبيذ على الخمار في التحرير لاشتراكه في علة الإسكار، فإن الفارق بين الخمار والنبيذ تكون أحدهما من ماء العبب خاصة فيجوز أن يكون ذلك هو المؤثر في الحكم، ويجوز أن يكون المؤثر غير كونه من ماء العبب بل مطلق الإسكار مثل فتأثير الفارق بين المقتضى والمقيض عليه هنا غير مقطع بنفيه لذلك أجاز ابن سريج تخصيص القرآن بالقياس بعين الخفي.

حكم العمل بالعام قبل البحث عن المخصص

نقل الغزالي والأمدي الإجماع على منع العمل بالعام قبل البحث عن المخصص، ومذهب الحنفي كأني يشكيه عنهم الكمال ابن الهمام وصاحب مسلم، ثم أنت أنه يجوز العمل بالعام قبل البحث عن المخصص وهذه وافقهم على
ذلك البيضاوي، وحكي أبو إسحاق الأسفراييني الاتفاق على ذلك. ويؤيد هذا أن العمل بالعام قبل البحث عن المخصص قد وقع فعلا من الصحابة رضوان الله عليهم حيث طالبت السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمراجع استنادا إلى العموم في آية الموازنة، ولم تبحث عن المخصص الذي ظهر بعد ذلك في قول أبي بكر:

نحن معشر الأنباء لا نورث فر وف قطى عمر رضى الله عنه بالدية في الأصابع بمجرد علمه بها في كتاب عمرو بن حزم ولم يبحث عن المخصص. وتقل عن بعضهم القول بأن هناك تفصيلاً أحسن. ملخصه: أن الصحابة يجوز لهم العمل بالعام قبل البحث عن المخصص، فإن له لا يتحمل الخفاء عليهم لو كان وأما العامي الذي يتحمل الخفاء عليه فيتوقف عن العمل بالعام قبل البحث عن المخصص، والمجتهدون من علماء الأمة الذين توفر فيهم شروط الاجتهاد في حكم الصحابة.
النص:

هو اللفظ الذي يدل على معنى متباشر منه ومقصود من الكلام أصالة مع احتيال للتأويل وقبوله للنسخ في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كما أنه يدل على معناه دلالاً قطعية ولا يحتمل غيره أصلاً كمحمد وعلي وإبراهيم، وكالعدد خمسة وعشرة.

ومثاله قوله تعالى: ﴿فَأَحَلَّ اللهُ الْبِيعَ وَحَرْمَ الْرِّبَا مَنْ فِي دَارِهِ ﺗُنَحَّرُ ﺑِنَّفَٰصِ رَبِّهِ﴾ في دلالته على نفي المبتهلة بين البيع والريبا لأنه معنى متباشر منه وهو المقصود الأصلي من سوق الكلام، واحتيال التأويل والنسخ قائم في النص كما سبق في الظهر.

والفرق بين الظهر والنص ينحصر في أن النص يمتاز على الظهر بأن المعنى الذي يدل عليه هو المقصود الأصلي من سوق الكلام. أما الظهر فإن المعنى المأخوذ منه لا يكون مقصوداً أصلياً من الكلام.

حكم الظهر والنص: حكم الظهر والنص هو واجب العمل بالمعنى المستفاد منها حتى يقوم الدليل على التأويل أوالنسخ.

ومن التأويل الذي قام عليه الدليل أن البيع في قوله تعالى ﴿فَأَحَلَّ اللهُ الْبِيعَ﴾ قد خصص به البيع صلى الله عليه وسلم عن بيع الفزير، وبيع الإنسان ما ليس عنه.
المفسر

هو الفظ الذي يدل على معنى متبادر منه ومقصود من سوق الكلام دون أن يتعلق تأويلاً، مع احتياله للنسخ فقط في عهد الرسالة.

ومثاله قوله تعالى: "والذين يرون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهادة فاَجَلَّدوهُمُ ثَلاَثَينَ جَلَّةٍ" (1).

فإن هنالك عدد الجلادات فإنه متبادر مقصود من سوق الكلام، لأن الآية قد نزلت لبيان عقوبة القذف ولفظ "ثلاثين" الذي دل على العدد للفظ خاص لا يتعلق تأويلا بالزيادة ولا بالنقصان إلا أن هذا الحكم حكيم جزئي كان من الجائز نسخة في عصر الرسالة فكان محتملا للنسخ والتغير في ذلك الوقت.

ومن الأمثلة أيضًا قوله تعالى: "قُتِلَوا المشركين كافة" (2) في دلالته على قتل جميع المشركين فإنه معنى متبادر ومقصود من سوق الكلام ولفظ المشركين) من قبل العالم الذي يحتل التخصيص، ولكن كلمة (كافة) نفت هذا الاحتمال فأصبح اللفظ (المشركين) مع (كافة) غير محتمل للتخصيص، ولولا كلمة كافة التي نفت هذا الاحتمال لكان هذا اللفظ من قبل النص لا المفسر.

حكم المفسر: وحكم المفسر ووجب العمل به إلا إذا قام دليل على نسخه.

(1) النور: 4. (2) التوبة: 36.

106
لمجْمَعٌ

هو الفظف الذاكر على المعنى المتبادر منه، والمقصود من سوق الكلام دون أن
يتحمل تأويلًا ولا تخصيصًا ولا نسخًا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولا
بعد وفاته.

ومثال قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لِكُمْ أَن تُؤْذَىَ رَسُولُ اللهِ لَا أَن تَنْكِحَا﴾ (1).

أما أزواج من بعده أبدًا فإن ذلك كان عند الله عظيماً (1).

وهو النص المحكم يفيد حرم الزواج بأمهات المؤمنين حربة مؤيدة غير
قابل للتأويل ولا للنسخ في عصر الرسالة لوجود قيد الأبدية في الآية الكريمات.

وقوله صلى الله عليه وسلم: ﴿اَلْجِهَادِ مَاضِىٍ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ حيث صرح
الحديث الشريف ببقاء حكم مشروعة الجهاد إلى يوم القيامة غير قابل للتأويل
ولا للنسخ في عصر الرسالة.

كما أن من المحكم النصوص التي جاءت بأحكام أساسية كوجوب الإيام
بلاطة والملاذة والكتب والرسول واليوم الآخر وكوجوب التحل بالقضايا
والتصويت عن الرذائل، وكذلك النصوص التي جاءت في القرآن بأخبار ماضية

(1) الأحزاب: 53 .

107
أو مستقبلة كأخبار الأنبياء وأقوامهم في العهود الماضية، والأخبار بالآيات في المستقبل كهزيمة الروم ثم انتصارهم بعد ذلك ونزول الدابة في قوله تعالى:

(10) غلبته الروم في أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سبيلون في بضع سنين.

وقوله تعالى: { وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمنا أن الناس كانوا بآياتنا لا يؤمنون} (10).

وبوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أصبحت كل النصوص التشريعية محكمة حتى ما كان قابلاً للفسخ منها في حيائه لمكان نسبه إليها بعد وفاته عليه السلام.

حكم المحكم: والمحكم يجب العمل به لقوة وضوحه وعدم احتياله للتأويل أو النسخ.

الألفاظ باعتبار وضوحها.

والالفظ الواضح يقسم أربعة أقسام: ظاهر ونص ومفسر ومحكم.

 فالظاهر هو الفظ الذي يدل على المعنى المتبادر منه، ولكنه ليس مقصوداً أصلياً من الكلام، مع اعتيائه للتأويل في الخاص والتخصص في العام وقبوله للنسخ في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومثال قوله تعالى: { أحل الله البيع وحرم الربا} في دلالة على حل البيع وعلى حرمة الربا؛ فإنه ظاهر في دلالة على هذين المعنيين لتبادرهما منه؛ مع كونهما ليسا مقصودين أصلاً من هذا الكلام؛ فإن المقصود الأصلي منه هو

(1) الروم: الآية الثانية. (2) العمل: 82.

108
نفى المبائلة بين البيع والربا ، ردًا على من قالوا ( إنها البيع مثل الربا ) وذلك أن الآية تقول : الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كا يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس بذلك بأنهم قالوا إنها البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا ( 9 ). ومع هذا فإن لفظ البيع والربا من ألفاظ العموم لدخول " ال " الجنسي والاستعراقة عليها فتحتمل كل منها التخصيص كا أن حل البيع وحزمة الربا من الأحكام الجزئية التي كان يجوز نسخها في وقت التشريع مدة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم .

( 1 ) البقرة : 275 .

109
المشترك

هو اللفظ الذي وضع له معنى، ويصبح له معنى آخر غيره كلفظ العين؛ فإنها وضعت للفظ متعددة بأوضاع مختلفة فمن معانيها: العين البصرة، والعين الجارية، والذهب والدينار، والكاسوس، والشمس، وحرف الهجاء المعروف (ع) وغير ذلك (١).

ولفظ «القرء» فإنه وضع له معنيين: الحيض والطهر ولفظ «المولي» فإنه موضوع للسيد والعبد، ولفظ «بان» موضوع لمعنى «انفصل» ولفظ لمعنى «ظهر».

ولفظ «المشترى» فإنه موضوع للكوكب المعروف، ولفظ لقابل البائع، وكحرف الباء فإن من معانيه الإلصاق، والاستعانة والسبيبة والظرفية والمصاحبة.

استعمال المشترك في معانيه:

اتفق العلماء على أن الأصل في اللغة عدم الاشتكك ليدل اللفظ على معنى

(١) القاموس المحيط باب النون - فصل العين. ١١٠
واحد لا يتناسى معه، فإذا احتمل المعنى المشترك وعدم الاحتجاج.

وإذا تحقق المشترك فابحث عن قريبة تساعدك على المعنى المقصود من

واللغة المشتركة. وقد تكون القريبة لفظية في مثل قوله تعالى: { وفجرا الأرض
عيونا} فالتفجير قريبة على أن المراد عيون الماء، وكما يقال: أعدم فلان لأنه
كان عينا للأعداء فإن الإعدام قريبة على أن المراد بالعين الجاسوس ...

وهكذا.

ولا يجوز استعمال المشترك في أكثر من معنى واحد مطلقًا عند أكثر الحرفية

وبعض الشافية ومنهم الفخر الرازي لأن المشترك موضوع لكل معنى من
معانيه بوضع خاص ولم يوضع ليدل على جميع معانيه مرة واحدة فلا يجوز لك
أن تقول: { رأيت عينا} وتريد بذلك أنك رأيت عينا باشرة وعينا جارية
وجاسوسا... إلخ بل يجب أن يكون المقصود بها معنى واحدًا من هذه
المعاني. ولا يتم ذلك إلا بإلحاق المشترك بالقريبة المساعدة على توضيح المراد
حتى لا يكون الكلام مبهمًا.

وإذا كان الكلام مبهمًا صار مشكلًا.

فالمشكل: هو المعنى الذي لا يتضح معناه في أول الأمر لسبب ذاتي كأن
يكون المعنى المشترك وموضوعاً لمعان متعددة ولا يعرف المراد منه إلا بالنظر
والتوقف في القرائن المعينة لتزيل إشكاله.

ومثال ذلك للفظ {قرى} في قوله تعالى: { والمطلقات ترتيبهن بأنفسهم
ثلاثة قرى} فإن المشتركة بين معاني هما: الحيض والطهر فلا يتضح المعنى

(1) البقرة: 228.
المقصود منه في الآية وهذا خفاء في اللفظ ذاته، وقد اجتهد العلماء في تحديد الراد منه وإزالة خفائه بالبحث والتأمل في القرآن واختلقوه في ذلك:

فذهب الأحناف والحنابلة إلى أن «القره» يقصد منه الحيض مستدلين بالقرآن والأدلة التالية:

أولاً: يقول الله تعالى في نفس الآية: (ولا يحل له أن يكتمن ما خلق الله في أعجاه» (1) فإنه يدل على أن المراد بالقره الحيض لأنه الذي يوجد في الأرجام وليس الطهر.

ثانيًا: يقول الله تعالى: (والأثني يسمن من المحيض من نساءكم إن ارتدتم فقد تعنتين ثلاثين الشهر) (2) فقد جعل الأثني بالأشهر مكان الحيض عند الياس من هب، فدل ذلك على أن القره هو الحيض.

ثالثًا: يقول رسول الله صل الله عليه وسلم: ( إطلاق الأمة ثلاث وعدها حيضتان) فقد اعتبر الحديث عدة الأمة بالحيضات ويكون دليلا على أن المراد بالقره في الآية بالنسبة للحرة هو الحيض.

رابعا: أجمع العلماء على أن استبراء الأمة بعد شرائها يكون بالحيضة فتكون العدة كذلك؛ لأن الغرض في الحالين واحد وهو التعرف على براءة الرحم أي خلوه من الحمل.

خامسا: المقصود الأصل من العدة هو التعرف على براءة الرحم أي خلوه من الحمل، والذي يعرف خلو الرحم من الحمل هو الحيض لا الطهر، فإن الطهر يكون مع وجود الحمل.

1) البقرة: 228.
2) الألقاب: 4.
سادسًا : قول الرسول للمستحاضة : \(\text{دعي الصلاة أيام إقرارك}^{1}\) فكان
معنى القرء هو الحيض لا الطهر في لسان الشع.
سابعًا : لو كان المراد بالقرء \(\text{الطهر}^{2}\) لصرفته الآية الكريمة ولم تعب عنه
بلفظ مشترك ؛ لأن الطهر لا يستحي من ذكره أما الحيض فإنه الذي يستحي
من ذكره فعبر عنه بالقراء كما عبر عن الجياع باللمس والمس.
وذهب الشافعية والمالكية إلى أن المراد بالقراء \(\text{الطهر}^{3}\) مستدلين بما يلي :
أولاً : أن الآية قد أنشئة العدد (ثلاثة) في قوله : \(\text{ثلاثة رؤوه}^{4}\) والقاعدة
العربية تقضي تأتيت العدد إذا كان المعدود مذكراً وفي هذا ما يدل على أن
القراء هي الأطهار لا الحيضات.
وعلّج عن البيان أن الأطهار مفردها طهر وهو مذكور والحيضات مفردها
حيض وحبيبته مؤثرة ؛ فكان تأتيت العدد دالاً على أن المعدود مذكور وهو الاقرأ
بمعنى الأطهار.
ثانياً : أن الطلاق المشروع يكون في الطهر لا في الحيض والله سبحانه تعالى
يقول : \(\text{فطلقوهن لمعدتهن}^{5}\).
أي في عدتهن لأن اللام بمعنى في كقوله تعالى : \(\text{ووضع المواتين}^{6}\) القسط ليوم القيامـة \(\text{أي في يوم القيامـة}^{7}\) فكانت العدة عشبية بالأطهار ؛
لأنها قد عبرت عنها الآية بالعدة.
ثالثاً : أن القرء معناه في الأصل الجمع والضم ؛ فكان تفسير القرء بالطهر
أقرب إلى هذا المعنى الأصل فإن الدم يتجمع في الرحم مدة الطهر ، ثم يلفظه
الرحم ويدفعه مدة الحيض.

\(\text{الطلاق : الآية الأولى}^{8}\).
(2) الأنباء : 47.
حكم المشكل: وما كان من الممكن إزالة خفاء اللغز المشكل بالبحث في القرآن والأدلة، وجب على المجتهد القيام بذلك حتى يتوصل إلى المعنى المقصود.

ومن مبهم الكلام أيضاً:

المجمل: وهو اللغز الذي لا يتضح معناه لذاته، ولا يزول خفاياه إلا ببيان من التتكلم، فالفرق بين المشكل والمجمل أن المشكل يكون للعقل عمال في بيان معناه بالبحث في القرآن، أما المجمل فلا يستطيع العقل الوصول إلى تحديد المراد منه، فكان لإبد فيه من الرجوع إلى مصدره لبيانه.

مثال المجمل لغز الصلاة والزكاة في قوله تعالى: وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فإن المعنى اللغوي للصلاة هو الدعاء، ولزكاة هو الزكاة، وقد جاءت في لسان الشعث بمعنى خاص ولا يمكن معرفة هذا المعنى الخاص إلا من الشارع نفسه وهذا جاءت السنة العملية والقولية ببيان المقصود من هذه الألفاظ المجملة في القرآن، وقد أصبحت بعد هذا البيان الكافى مفسرة.

حكم المجمل:

إذا ورد في النصوص لغز مجمل لم يكن هناك سبيل إلى توضيح معناه إلا بالرجوع إلى التتكلم به؛ لأنه هو وحده الذي يعرف المقصود منه لعدم وجود أدلته ولا قرائن تعين عليه تفسيره؛ فإذا ورد بيان التتكلم وافياً كافياً أصبح اللغز المجمل مفسراً وإلا صار مشكلاً.

المشتبه:

هو الغز الذي لم يتضح معناه لذاته، ولا توجد قرائن توضحه ولم يرد عن الشارع دليل قطعي أو ظني توضحه.
مثال ذلك: الحروف المقتصة في أوائل بعض السور في قوله تعالى: (المير) (حم) (ص) (ف) (ن) فإن هذه الألفاظ لا توجد قرائن توضح المقصود منها ولم يرد عن الشارع تفسيرها.
وعليه السلف يعدون من التشبيه النصوص التي تفهم مشابهة الله خلقه في مثل قوله تعالى: "يد الله فوق أيديهم" (1).
وقوله تعالى: "وجاء ربك والملك صفا صفا" (2) وقوله تعالى: "ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رايعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم" (3).
فالآية الأولى تثبت الله يدا ، والثانية والثالثة تثبت الله جهة ومكانا مع أن الله تعالى مترى عن ذلك ليس كمثله شيء (4) فالسلف يثبتون ذلك الله ويؤمنون به ولا يبحثون في معناه ولا يتأملون وإنما شأنهم التفويض في ذلك إلى الله تعالى.
أما علية الخلف فيتأولون هذه النصوص ويزرونها عن ظاهرها لاستحالة نسبة ذلك التشبيه إلى الله تعالى ويرون أنها مستعملة في معان مجازية مشهورة فايلد بمعنى القدرة والمجيء أمر الله والمعية في قوله تعالى: "ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أبدا كانوا" (5) معية علم وإحاطة لامعة مكان وجهة، فعند التشبيه في القرآن ثابت لاشك في ذلك كأ قال تعالى: "هو الذي أنزل عليه الكتاب منه آيات محكيات هم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيا فتتبعون ما تشامه منه إباحة الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والرسخون في العلم يقولون أمنا به كل من عند رينا وما يذكر إلا أولوا الألباب" (6).

(1) الفتح: 22
(2) الفجر: 2
(3) المجابهة: 7
(4) الشورى: 11
(5) آل عمران: 7
(6) المجابهة: 7

115
غير أن بعض العلماء يرون أن هذا المتشابه لا سبيل إلى إدراك معناه والوقوف عند أسم الله تعالى وما يعلم تأويله إلا الله AMA الراسخون في العلم ففهمون المتشابه وتبعون حقيقته ويجمعون إلى تأويله ويرون أنهم بذلك أعلم.

حكم المتشابه:

يجب الإدان بالنصوص المتشابهة باتفاق السلف والخلف مع التفويض عند الفريق الأول والتآويل عند الفريق الثاني.

الكلام على بعض لطائف قوله تعالى:

ليس كمثله شيء

يقول صاحب الفضيلة العلامة المحقق المدقق المحدث الفقيه الصوفي الشيخ سلامة القضاعي العزامي الشافعي حول معنى هذه الآية: ليس كمثله شيء من الكائنات وإن علا في الشيشة كعبه ، وارتفعت عندكم درجة وجوده، وامتاز لديكم في كياليته الفائقة يبالغ درجة أن يشبه مثل جنباب الأعلى عن الأمثال في شيء مما هو عليه عز وجل في تقداس ذاته وجلال صفاته. 

والعرب إذا أرادت المبالغة في الإثبات أو النفي قالت: 

مثلك من جود، ومثلك من لا يبكل، لتدل بالإيان بلفظ المثل على الإثبات والنفي، مما أثبت أو نفت عن المعاطب بطريقة برلمانية على سبيل كتاباتهم البديعة فكأنهم يقولون: من كان على ما أنت عليه من الصفات فقد

(1) البراهين الساطعة في رد البدع الشائعة للعلامة الصوفي الشيخ سلامة العزامي ص 245 وما بعدها.
ثبت له كذا أو نفی عنه كذا فأتت أولى بذلك الإثبات أو النفى. وقد خاطبهم القرآن على أروع أساليبهم، وزاد هذا الأسلوب على ما يخطر لأصحابهم بيانًا بدرجات لا تخصى فكأنه سبحة وتعال يقول: كل شيء من الممكنات، وإن تقدم لديكم في الكوالات فهو متأخر كل التأخر عن أدنى درجات الشبه لمثلنا لو فرض لنا مثل في شيء من الكوالات، وهو، وإن علا في كماله في أنظاركم أخذ من أن يرقى إلى رتبة من الشبه في شيء هو مثالنا المفروض من الصفات فكيف له بسبهنا ذاتنا ونحن في كماله كمالنا، وإرفع جلالنا، أعلى من أن يقع نفی مشابهتنا خلقنا في صريح العبارات، فإن من كان بالمحال الأعلى من الكوال الآنسى بحيث يستحيل أن يشاركه فيه شيء لا يتوهم فيه أن يشبه ما هو أدنى حتى ينفي عنه الشبه به وإنها يتوهم فين أرث حظا من الكوالات أن يكون له شيء الشبه بمن هو أعلى فينف غذا الهمم، ولتستخ أقدامكم في العلم بأنه لا يشبه مثلنا التقدير الفرضي شيء فضلا عن أن يشبه ذاتنا العلية.
النسخ

يطلق النسخ تارة عند الفروزين على الإزالة، فيقال نسخت الشمس الظل
إذا أزالته، كما يطلق تارة أخرى على نقل الشيء وتحويله من حالة إلى حالة أو
من مكان إلى مكان كتشاس المواريث أي انتقالها من يد إلى يد، كما تقول
نسخت النحل أي نقلته من خلية إلى خلية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَهَا
كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا ننسخ ما كنتم تعملون﴾ (1) أي نقله.

أما في مصطلح الأصوليين: فقد عرف بتعريفات كثيرة مدار الخلاف بينها
أنه البيان تارة، ورفع تارة أخرى، وسيتضح لك أيها الفارئ الكريم أنها
يتهيأ إلىمعنى واحد وتورد هنا تعريفين نموذجاً لما أشرنا إليه.

التعريف الأول:

هو بيان انتهاء حكم شرعي بطريقة شرعية متراحل عنه، ومعنى هذا أن
الحكم الشرعي مرتبط بغاية عند الله تعالى أو محدود بوقت معين، فإذا انتهت
هذه الغاية أو حل الوقت المعين انتهى الحكم لذاته.

(1) الجالية: 29

118
التعريف الثاني:

«هو رفع حكم شرعي بطريقة شرعي متراض عنه» وإذا دقت النظر في التعريفين وجدت أن الفارق بينهما كلمتان: بيان، ورفع. فمن زعم أن الحكم قديم، والقديم لا يرفع، قال: إنه بيان، ومن ذهب إلى أن الحكم هو الحكم الأصلي، وهو الذي يكون مشتاً تارة ومنفياً أخرى، فهو حادث عبر بلفظ «الرفع» فإن وقع التعبير بالبيان أو الرفع فلا ي أساس.

أقسام النسخ

ينقسم النسخ إلى ثلاثة أقسام:

الأول: نسخ الحكم دون التلاوة ومثاله من القرآن قوله تعالى: ﴿وَالذِّينَ يَتَوَفَّونَ مَنْكَمْ وَيَذِرُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَيَعْبُدُونَ آآَتَ اللَّهِ فِي هِيَمَةٍ﴾، وأوجبت العدة حولاً كاملاً على المتزوج عنها زوجها. وقد نسخها قوله تعالى: ﴿وَالذِّينَ يَتَوَفَّونَ مَنْكَمْ وَيَذِرُونَ أَزْوَاجَهُمْ يَتَرَبَّصُونَ بِأَنفُسِهَا أَرْبَعَةَ شَهُورٍ وَعَشَرَانَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَكِنْ دِينَكُمْ وَلَى دِينٍ﴾ نسخ حكمها آيات القتال بالنسبة لكل فارق من غير أهل الكتاب.

الثاني: نسخ التلاوة فقط ومثاله: الشيخ والشيخة إذا زنبا فاجمهما البثة نكالاً من الله، والشيخ المحصن والشيخة المحصنة. قالت: والمحصن الذي تم له العقد الشرعي ولو لم يدخل. وقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم رجم ماعزاً حين زنبو بالغامية، وقصتها معروفة في كتاب السنة ولم ينقل إليها هذا اللفظ قرأنا يثلث، وبعضهم يعَتِب بالقراءة المشهورة التي لم تتواتر كقراءة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: ( وإن كان رجل يوريث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت من أم).
الثالث: نسخه معها (أي الحكم والتلاوة) ومشهورة بها ينقل عن السيدة عائشة رضي الله عنها: "كان فيها أنزل عشر رضيوع محرومات ثم نسخ بخمس".

فمنذ ملك صدر الآية وهو "عشر" وأخرها وهو "خمس" ممنسوخ التلاوة والحكم، أما صدر الآية عند الشافعي فدومًا ممنوس الحكم، وأما أخرها فممنوسه التلاوة فقط ولكن الحكم باق. هذا نوع من تقسيم النسخ.

وهناك نوع آخر يقسم النسخ فيه إلى:

1- نسخ بلا بدل كنسخ تقدييم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

2- نسخ ببدل مسار: كنسخ استقبال مسجد المقدس باستقبال الكعبة.

3- نسخ ببدل أخف: كنسخ عدة الموت بوحيها نصها حولا بالعدة أربعة أشهر وعشرا.

4- نسخ ببدل أثقل: كنسخ بإباحة الخمر بتحرمنا.

5- نسخ التخير بين الصوم والغذاء بفرضية الصوم على الذين يطيعونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرًا فهو خير له وأن تصوموا خير لكم ونسخ صوم عاشوراء بصوم رمضان.

وهذا النوع الآخر منهج الظاهرية مستندين إلى قوله تعالى: "ما نسخ من آية أو نسخا نات بخير منها أو مثلها" وله قوله تعالى: "يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر" فكيف يكون الأثقل والأشق على العباد خيرا؟ هذا بعزمهم.

قلت: وكلامهم مردود بأن الخيارية إنا هي بالنظر لمصلحة العباد، وقد
تكون في الأشي القوى شرعه الحكم العلم والمثواب على قدر المشفقة كما يقولون، وإذا كان الأمر كذلك كان تشريع الأئل خيراً، وكان تيسيراً من الله فيكون هذا النصج جائزًا.

ومعرفة الناسخ والمنسوخ مما يظهر لنا حكمة البارى سبحانه وتعالى للمخلق، وسياسته للبشر، كما يدل دلالة واضحة على أن النبي صلى الله عليه وسلم نفسه لا يكون مصدرًا لما هذا القرآن بمنحه الله من الأمية المفعمة. كأنه لا يمكن أن يكون منبعاً للتشريع، وإن هذا الكتاب الذي لا يأتي الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم جيد.

كيا أن النسخ يدل على التدرج في التشريع كبداية من المبادئ التي ساس الله بها الأمة الإسلامية، وأصلها بها نظام الخلق. وفي التدرج في تزريم الخمر أكبر مثل على ذلك.

ففي المرحلة الأولى يقول الحق سبحانه: { يسألونك عن الخمر والمسر قل } (1).
وفيها إثم كبير ومنافع للناس وإنهمها أكبر من نفعها { } (1). 
وفي المرحلة الثانية إشارة بقوله تعالى: { يأيها الذين آمنوا لا تقبروا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما يقولون } (2).
أما في المرحلة الثالثة والأخيرة حرمها صراحة ودعاء إلى اجتنابها في قوله جل وعلا: { يأيها الذين آمنوا إنه الخمر والمسر والأنصاب والإبل يعجل من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون } (3).

(1) الآية 319 من سورة البقرة.
(2) الآية 43 من سورة النساء.
(3) الآية 90 من سورة المائدة.
إن هذا النوع من التربية الإلهية التدريبية يدل على أن الله إنيا يريد الخير لعباده، ويدعوهم إلى الدخول في حظيرة قدسه، والجلوس على بساط أسسه; لتجمل سعادتهم في الدنيا والأخرى قال تعالى ﷺ: ما يعمل الله بذالكم إن شكرتم وآمنتكم وكان الله شاكراً عليه.(1)

تأمل معى أيها القارئ الكريم آية الخمر الأولى تجد أنها نهتیة لأذهان مدمني الخمر، وتمهيد لنفوذهم لكون على استعداد للتقلن التحرر، وفي الآية الثانية ماهدل على أن الخمر محرمة في بعض الأوقات دون البعض، وهذه الأوقات التي يحرم فيها الشرب هي أوقات الصلاة؛ لأنه لا صلاة لسكران كذا أنه لا صلاة جنب حتى يطهر، ولذلك فإن هذه الآية قرنت السكران بالجنوب; فكلها لا صلاة له حتى يفقه الأول ويتطرز الثاني. يقول الإمام الشافعي:

"صلاة قول وعمل وإمساك".(2)

ثم تلا هذه المرحلة الثالثة والأخيرة التي حرم الخمر بأنواع من التأكيدات وقويتها بالميسر والانصاب والأزمات، وسمت ذلك كله رجسا من عمل الشيطان فجاء الأمر الإلهي بالاجتياح التام، وجعل ذلك سببا في إدراك الفلاح الذي هو سبيل مرضة الزب وطريق الجنة ثم بين بعد ذلك ما في الخمر من المقاصد الدنيوية والدينية فقال: "إنيا يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويعديكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنت متيون؟(3) قالت السيدة عائشة رضي الله عنها في رواى البخاري في حديث طويل:


(1) الآية 147 من سورة النساء.
(2) راجع الرسالة ص 120، 121.
(3) الآية 91 سورة المائدة.
(4) راجع فتح الباري 10/ 415، باب تأليف القرآن.

122
ومن فوائد معرفة الناشق والمتسوخ أيضاً الاهتداء إلى صحيح الأحكام ؛ لأن هناك في الكتاب والسنة ما ظاهره التعارض والتناقض ولا يندفع هذان الأمران إلا بمعرفة سابقة ولاحقة سواء من القرآن أم من السنة ولذلك قال الأئمة رضي الله عنهم : ولا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف الناسخ من المنسوخ.

ما المراد بالحكم الشرعي؟

المراد بالحكم الشرعي خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين على جهة الاقضاء أو التخدير أو المتعلق بالأمم من أفعال المكلفين على جهة الوضع.

المقصود بخطاب الله كلامه النفسي المدلول عليه بالكلام الفظي سواء كان قرآنًا أو سنة أو إجماعًا أو قياسًا أو غير ذلك من سائر الأدلة ؛ لأنها معرفة بخطاب الله تعالى كاشفة عن أحكامه.

وأفعال المكلفين ما صدر منهم من قول أو فعل أو اعتقاد والكلف هو البالغ العاقل الذي بلغته الدعوة على جهة الاقضاء ، أي الطلب ؛ سواء كان طلب فعل فيكون أمرًا ، أو طلب ترك فيكون نهيًا ، وسواء كان هذا الطلب جازماً فيكون واجباً أو غير جائز فيكون مندوبًا ، أو التخدير ، ومنع التخدير النسوية بين الفعل والترك ؛ فشمل الاقضاء والتخدير. الأحكام الخمسة.

وهي : الإيجاب والندب والتحريم والكراهية والإباحة.

هذا هو الحكم التكليفي الذي عرفناه بأنه خطاب الله المتعلق بفعل المكلف اقتصاء أو تخديرًا . وقد عرفت أن الاقضاء هو الطلب وأقسامه أربعة .

فإن كان طلبًا للفعل جازماً فهو الإيجاب كأقيموا الصلاة وإن كان طلباً للفعل غير جائز فهو المندوب كقوله تعالى : « فكاتبهم إن علمتم فيهم خيراً ».

١٢٣
وإن كان طلبا للكف عن الفعل طلبا جازما فهو التحريم كقوله تعالى:

(ولا تقربوا الزنى).

وإن كان طلبا للكف عن الفعل غير جازم فهو الكراهة كقوله صلى الله عليه وسلم: "إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصل ركعتين".

وإن كان اختاب متعلقا بالفعل على جهة التخيار بين الفعل والترك فهو الإباحة أي أن الكفف غير بأن يفعل أو لا يفعل كقوله تعالى:

(ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتكم غير مسكونة فيها متحاب لكم) (1).

والاصل في الأمور الإباحة ما لم يرد نص بتحريمنها هذا ومن نظر في كتب الفقه وجد أن أقسام الحكم تزيد عن هذه الخمسة فهناك غيرها، سنة مؤكدة وسنة غير مؤكدة ورغبية ومندوب ومستحث وتطوع ومكروه تجرية ومكروه تنزه وخلاف الأولي.

والواقع أن هذه كلها لا تخرج عن الأقسام الخمسة السابقة، لأن السنة المؤكدة وغير المؤكدة والمستحث والتطوع كلها من المندوب وهو الفعل المطلوب طلبا غير جازم، كما أن المكرره تجرية وتزنيه خلاف الأولي كلها من المكرره، والتفاقيه بين هذه الحقائق وتسمية كل منها باسم يخصه إنها هو اصطلاح للفقهاء ولا شأن للأصوليين به.

الحكم الوضعي

هو خطاب الله تعالى المتصل بجعل الشيء سببا أو شرطا أو مانا أو صحيحا أو فاسدا.

(1) البقرة: 198 (2) النور: 29

النور: 198

124
وأقسامه خمسة:

١- السببية: وهي جعل الشيء واعتباره سببا كأن يجعل الشارع القدرة
سبيلا للإيرث، ودخول الوقت سبيلا للصلاة والقتل العمد سبيبا لإجهاض
القصاص والزنا سبيبا للحمد والسرقة دعارة للقطع.

٢- الشرطية: وهي جعل الشيء واعتباره شرطا كجعل الشارع القدرة على
تسليم المبيع شرطا في صحة البيع والطهارة شرطا في صحة الصلاة.

٣- المانعية: وهي جعل الشيء واعتباره منعًا كجعل الشارع الحيض
مانعًا من جوم الصلاة وصحتها، والصوم وصحته وقتل الوراث مورثه منعا
من إبره.

٤- كون الشيء صحيحًا: وهو اعتبار الشيء صحيحًا إذا فعل على النحو
الذي أمر به كاعتبار الصلاة صحيحًا إذا أقيمت مستوفية الأركان والشروط.

٥- كون الشيء فاسدًا: وهو اعتبار الشارع الشيء فاسدًا إذا تم على
صورة غير مشروعة كاعتبار الصلاة فاسدة إذا أني بها الشخص غير مستوفية
لجميع أركانها وشروطها.

ويكون الفعل صحيحًا إذا وافق أمر الشارع استنادًا إذا كان أو معاملة على
الوجه الذي طلب الشارع بأن كان مستكملًا شروطه وأركانه.
كما يكون فاسدًا إذا لم يوافق أمر الشارع استنادًا كان أو معاملة كان اختلا فيه
ركن أو شرط.

ومن أمثلة العبادة والمعاملة في الصحة والفساد يقال صوم صحيح وصلاة
صحيحة كما يقال إجارة صحيحة وصلم صحيح كما يقال بيع فاسد وصلاة
فاسدة.

١٢٥
أما الإجزاء فلا يوصف به إلا العبادة فقط فيقال: صوم مجزئ وصلاة مجزئة
أي تكفي ولا يقال رهن مجزئ أي كاف.

جواب النسخ ووقوعه
المسلمون على جواز النسخ عقلا ووقوعه شرعا لم يشذ عنهم إلا أبو مسلم
الأصفهاني.
أما اليهود فقد اقتربوا إلى فرق ثلاث:
الشمرانية الذين منعوا النسخ عقلا وسمعا، والعنانية الذين أجازوه عقلا
ومنعوا سمعا،
واليسوعية الذين أجازوه عقلا وسمعا، ولكنهم منعوا أن تكون شريعتهم
منسوخة بشريعتنا.
ويعتقد الجمهور في جواز النسخ عقلا إلى أن أحكام الله إن كانت تابعة
لمصلحة العبد، فإن هذه المصلحة قد تغير بتغير الأوقات كالدواء مثلا يتلقع
به في وقت ويضرب في وقت آخر، والطعام ينفع عند الجوع ويضرب عند الشبع
فيجيب على ذلك أن يتغير الحكم فيحسن الأمر به في حال، والنهي عنه في
حال آخر، ولا مجال في ذلك عقلا لأنه تابع للمصلحة كما يتغير بتغير
الأشخاص فقد يكون مصلحة لشخص مفسدة لشخص آخر.
كما يستندون في جواز شرعا إلى قوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسخها
نأت بخير منها أو مثلها﴾ (1) فإن هذه الآية صريحة في جواز النسخ شرعا
وبالنسبة لممن خالف من المسلمين كأبي مسلم فالأمر ظاهر لضرورة موافقته

(1) البقرة : 106

126
على أن الآية من كلام الله صدق، وأن كلامه كله صدق باعتبار هؤلاء المخالفين
مسلمين فيلزم التصديق بها جاء عن الله ورسوله ... وأما بالنسبة للميهد فإن
الأدلة الدالة على نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى صدقه فيها يبلغه
عن ربه تدل على صحة هذه الآية وعلى صحة الاحتجاج بها في قواعد النسخ.
أما وقوع النسخ فالدليل عليهم أن آدم كان مأمورا بترويج الأخت للاخ من
بطين مختلفين تنزيلًا لاختلاف البدون منزلة اختلف الأسس ، وقد حرم الله
ذلك باتفاق منا ومن اليهود ، وقد حرم الله عليهم السبت بعد أن لم يكن
حراما ، وحرم عليهم طيابات كانت حالا لهم : ففيCOME من الذين هادروا
حورما عليهم طيابات أحلت لهم ) (1) وقد جاء عيسى عليه السلام بحل
بعض ما حرم عليهم ولأحل لكم بعض الذي حرم عليهكم (2).

وأما أن تنقل عن النرو وأنه تعالى قال لنوح : إنى جعلت كل دابة حية
ماكلا لك ولذرتك وألقظت ذلك كتبات العشب ما خلا الدم فلا تأكلوه
ثم حرم منها على لسان موسى عليه السلام أشياء كثيرة.

فإن قال إن أمر آدم والإباحة للذريته كان مقدما يظهر شريعة من بعده
فتعتبر ذلك على من بعده لا يكون نسخا قلتا : الأمر لأدم والإباحة لنوح كان
مطلقًا والأصل عدم التقيد ، وإن قال إن ذلك كان مقدما في علم الله يظهر
شريعة أخرى قلتا: فذلك هو عين النسخ.

وأما المخالفين من المسلمين فيحتاج عليهم بي ثبت أن الصحابة والسلف
الصالح أجمعوا على نسخ وجوب التوجه لبيت المقدس باستقبال الكعبة ، وعلي
نسخ الرخصة للوالدين والأقرنين بآية الموارث ، وعلى نسخ صوم يوم عاشوراء
بصوم شهر رمضان .

(1) النسخة : 160 . (2) آلال عمران : 50 .
قال الإمام الشافعي في رسالته: لا ينسخ كتاب الله إلا كتابه، وهكذا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينسخها إلا سنته. وهذا صريح في أن الشافعي رضي الله عنه يرى أنه لا تنسخ السنة بالقرآن، ولا ينسخ القرآن بالسنة.

ولنا أن نقول: السنة إما متوارطة، وإما آحاد والشافعي منع نسخ القرآن بكتبته.

أما الجمهور فقد أجازوا نسخ القرآن بالسنة المتوارطة ومنعه بالآحاد، وأجازه آخرون.

ومع أغلبة الجمهور على نسخ الكتاب بالسنة بأن الله سبحانه أوجب الوصية للوالدين والأقربين بقوله تعالى: "فَكُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمَا الْمَوْتَ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصْيَةَ لِلْوَالِدِينِ وَالْآَقِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًا عَلَى الْمَتَّينِ"، ثم نسخ الواجب بقوله صلى الله عليه وسلم: "لا ولا وصية لراث".

وبأن الله سبحانه جعل حد الزانية والعاني مائة جلدة وجعل هذا شاملاً

(1) البقرة: 180.

178
للذكر والمحصن أخذا من عموم الآية اللائنة واللائنة فانпал إلى كل واحد منها
مجلدة ١(١).

ثم نسخ ذلك بما ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم رفع الثوب والثعبان.
وقد عارض الشافعي الدلائل فقال: الحديث لم ينسخ الوصية لأن الخبر
آحاد غير متواتر، ثم إن هناك معارضة بما ثبت عن ابن عباس أنه قال: الذي
نسخ آية الوصية هي آية المواريث وفي الزانية والزاني قال هذا من باب تخصيص
الأئمة، ففرق بينه وبين النسخ، ثم إن النسخ عقران نسخت تلاوته هو:
الشيخ والشيخة إذا زنى فارجوها البنت فناسخ هذا القرآن وليس لنا نحن فيه.
ويستدل الإمام الشافعي لمذهبته دلائل أخرى:
أحدهما: قوله تعالى: ﴿ما نسخ من آية أو نسخة نأت بها عن من أو
مثلها ﴿ يقول رضي الله عنه: أرسل الله سبحانه الإتيان بدل المسوخ إلى نفسه
وما يأتي به سبحانه هو القرآن، فالذي نسخ القرآن هو القرآن لا السنة؛ لأنه
جعل المؤتي به بدلا خيرًا من المسوخ أو مثلًا له. والسنة ليست خيرًا من القرآن
ولا مثل له فوجب أن السنة لا نسخ القرآن.
والآخر: قوله تعالى: ﴿أو إننا إليك الذكر لتبين لنا الناس ما ننزل إليهم
ولعلمهم بتفكرون ﴿(٢) ودلالة على الطلوب أن السنة جعلت بيانا للقرآن فلو
كانت ناسخة لم تكن بيانا له وإنها هي رافعة كما سبق في تعريف النسخ.

(١) التحرر: الآية الثانية.
(٢) التحلل: ٤٤.
تعكّر الزواجات

العدد في الديانة اليهودية

ابحت الشريعة اليهودية عدد الزوجات، وسارت على نفس المنهج الذي سارت فيه الرسلات الإلهية قبلها. ففي شريعة إبراهيم الحليل عليه السلام كان التعدد مباحا وقد حدثنا الكتب السياوية عن زوجته السيدة سارة والسيدة هاجر. وجاءت اليهودية فأباحت التعدد. وفي أخبار العهد القديم أن داوود وسليان عليه السلام قد جمعا بين الزوجات الشرعيات وبين الإماء. وفي الإصلاح الحادي والعشرين من سفر الملك الأول: أن الملك سليان أحب نساء كثيرة غريبة، وكانت له سبعية من النساء وثلاثمائة من السراة.

وفي الإصلاح الرابع والعشرين من السفر السابق:

إذا أخذ رجل إمرأة وتزوج بها، فإن لم تجد نعمة في عينيه لأنه وجد فيها عيب شيء، وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيتها. إن إلغاء هذه هي الثورة في عديثها عن الزوجات قد أباح التعدد وأعطى الرجل الحرية في الزواج والطلاق.

العدد في الديانة المسيحية

جاء في الإصلاح الخامس من إنجيل متي: 1 وقيل من طلق إمرأته فليعطها كتاب طلاق. أما أنا فأقول لكم: 1 إن من طلق امرأته إلا لعلة الزوجي يجعلها تنزى، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزنى.

(1) إنجيل متي ص 34.
ومن رسالة بولس في أهل الرسل - إلى أهل تيموثاوس - الإصلاح الثالث: صادقة هي الكلمة .. إن ابتكي أحد الأسقفية فيستهي عملا صالحا فيجب أن يكون الأسقف بعُلَّمة واحدة صاحبا عاقلا صالحا للتعليم ، كذلك يجب أن يكون الشيامسة ذوى وقار غير مولعين بالخمر وليكن الشيامسة كل بعُلَّة واحدة (1).

لاحظ معنى أيها القارئ الكريم في هذا النص الأخير أنه يقرر الزواج بواحدة على طبقة معينة ؛ الأساقفة والشيامسة وهم رعاة الكنيسة وسندتها والقائمون على أمر الدين فيها . وقد طلب إليهم ذلك حتى لا يشغعوا بأمور الأسرة ومهام الزواج ومسؤوليته عن أمر أخرى التي هي حياة الخلوق والبقاء الأبدية فلمفعَّل إذن ليس للتحرير ولا يفيد التعميم لقصره على فئة خاصة من رجال الدين ، ولكنه استحسان من بولس الرسول . وهذا يوضح وجود التعدد في الديانة المسيحية ؛ وإن لما كان لاستحسان بولس هذا الفعل قيمة ولا معنى ، وكان عببن من القول وغوا ، كما أنه بعد استثناء من قاعدة التعدد الذي لم تعرض فيه الأناجيل كلها لمنعه . والسكون عن الشيء إقرار به . وقد جاء التعدد في العهد القديم ولم يعارضه العهد الجديد ، فكان إقرارا منه بالتعدد.

وقد بقي تعدد الزوجات مباحا في العالم المسيحي إلى القرن السادس عشر . وظلت الكنيسة معترضة به حتى القرن السابع عشر .

يقول بعض المغالين والتعصين للمسيحيَّة : إن المسيح يهبه أن ترجع الأمور إلى وضعها الصحيح سواء كان ذلك الوضع في البداية أو النهاية ..

نقول له : وقولك هذا دليل على صحة ما قلناه من أن زواج الأخوات بأختها كان جائزًا في البداية بين أبناء آدم وحواء فهل يزعم أحد أن المسيح يريد أن

(1) أهل الرسول ص 240.
يرجع إلى الوراء فينيق زواج الأخت بأختي بعد التحريم . معاذ الله أن يقول
أحد بهذا ولا يكون طعنا على المسيح بهذا القول منك عليك لا لك .
كآ أن ما جاء على لسان المسيح : من طلق أمرته وتزوج بأخرى يزنى
عليها ، وإن طلقت امرأة زوجها وتزوجت بآخر زنى .

هذا النص ختلف فيه بين الكاثوليك الذي لا يباحون الطلاق فيها كانت
الأسباب وبين الأثوذكس والبروتستانت حيث إن هنائي الطالفين فهماأ من
النص تبغيض الطلاق لا تحرم فإنه الزواج الثاني عندهم ليس زنا ما دام
الطلاق قد وقع موافقة للأسباب البليحة له .

ويقولون : إن الكنيسة لا تعرف غير المسيح عيسى ؛ أقول : هذا القول
في الواقع تشبه للمرأة بالكنيسة فهي مقصورة على زوجها فقط لا تشرك معه
غيره في معاشرتها له أما المسيح المشه بالعرس فله أن يدخل الكنيسة كلها
والكنائس متعددة فيكون عدد الزوجات مباحا بهذا التشبيه الواقع من قائليه .

أخيرًا فإن النصوص اليهودية والمسيحية لا تمنع تعدد الزوجات كما أنها
تيهج الطلاق وإن تضاربت في بعض النصوص كتحريم الختان بعد وقوعه
خليل الله إبراهيم ، كما أنه توجب بعض المحرومات من المطعومات والمشروبات ،
وليس في تصويمها ما يحدد الموارث ، بعد أن أنكرت ما جاء بالعهد القديم
فاستحقو أن يوصروا بقول الله تعالى : وَقَالَ الْيَهُودُ لِيَسَ الصَّارِي عل
شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال
الذين لا يعلمون مثل قوهم ; فليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه
يجتنبون (١).

(١) البقرة : ١١٣ .

(١) البقرة : ١١٣ .

١٣٢
وإذا كانت الأديان تبيح التعدد كما رأينا من النصوص، فإننا إذا ينين هذا التعدد على المسلمين، ولو علموا ما في التعدد من فوائد لبادروا بالأخذ به، وإنك ببعض أسبابه.

1- رعاية مال اليتامى: قال تعالى: ﴿وإن خقتتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكشفوا ما طاب لكم من النساء مثني وثلاث ورابع . . .﴾ (1).

2- سوء سلك المرأة: والنصوص المسيحية مثقفة من هذا المبدأ مما يفسرني للبحث عن أخرى.

3- العقم: حيث لا يحقق التناسل وهو من المقاصد الرئيسية للزوج.

4- وقد يطرأ العجز على المرأة بسبب داء عضال يشل حركتها عن القيام بمتطلبات الحياة الزوجية.

5- وقد يكون للزوجة قربة ذات صبية لا يمكن أن يرعاها غيره فيكون ضمها إلى أسرته خير من التردد عليها بدفع الإحسان أو الصدقة.

6- وقد يزيد عدد النساء على عدد الرجال في أعقاب الحروب التي تفرضها (1) النساء: 3

133
الظروف على المجتمعات؛ فالتدديد هذا أفضل من ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بعث.

ومع ذلك فإن قيود التعدد في الإسلام تكاد تقصر الرجل على امرأة واحدة؛
والنصوص كثيرة في الدعوة إلى إقامة العدل بينهن مع صعوبة تنفيذه.

كما أن القسم بين الزوجات في الحضر، وإجارة القرعة بينهن في السفر،
والنفقة على كل واحدة منهن وسكنائها حسب بيئتها ومكانتها الاجتماعية فهي
أمور تكفل بها الفقه الإسلامي فارجع إليه إن شئت.

وخلالية القول في قضية التعدد أن الإسلام لم يمنع الاكتفاء بزوجة واحدة
بل استحسن وحض عليه؛ كما أنه لم يوجب تعددًا بل أباحه بشروطه
والتزاماته، وكذلك الديانات السابقة لا تحرم التعدد كما يتلوهم المتعلمون منهم
والجاهلون.

وقد فطن إلى قيمة التعدد بعض كبار المصلحين في الغرب فها هو العالم
الألماني فون أرميلس، يشرح بأن قاعدة تعدد الزوجات لأزمة أو ضرورية
لبقاء السلالات الآتية ونحوها. وإليك ما كتبته صحف لندن سنة 1901 من
المقالات المتعارضة للإصلاح الاجتماعي وتعدد الزوجات وخلاصتها: لابد من
تفاقم الشر إذا لم يصح للمرجل المتزوج بأكثر من واحدة إلى أن تعدد الأولاد غير
الشرعيين من الرجال المتزوجين بواحدة أصبحوا كلاً وعالة وعازرين على المجتمع
الإنساني؛ فلقد كان تعدد الزوجات مباحًا لما حاول بأولئك الأولاد وبأمهاتهم ما
هم فيه من العذاب والهوان... وإباحة التعدد تصبح كل امرأة ربة بيت وأم
أولاد شرعيين.

وتقول الكاتبة الشهيرة (اللادى كوك) في مقالة لها بجريدة الإيكون، ما
خلاصته: «إن الافتلاح يلفهم الرجال، وهذا طمعت المرأة فيها يخلفه

١٣٤
فطرتها، وعلى قدر كثرة الاختلاط تكون كثرة أولاد الزنا؛ فالرجل يقضي حاجته ثم يترك فريسته تتقلب على فراش الفقر والع난 وتدوم مرارة الذل والهوان والاضطهاد بل الموت أيضًا، وكثيرًا ما يكون هذا الموت بالانتحار وغيره.

تلك هي دعوات بعض كبار المصلحين إلى التعدد في العصر الحديث وقد سبقهم الإسلام إلى ذلك منذ خمسة عشر قرناً. ليتضح لك حضارة الإسلام ومدنيته، ولا ننقص أهل إلا التمسك به والعودة إلى مبادئه ليسودوا العالم اليوم كما قادوه بالأمس. ولتتحقق لهم الخيرية التي وسعتهم بها القرآن في قوله تعالى: «كُتِبَ خِيرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ.»
لمعجزة أمر خارج للمعادلة مقررة بدعوى التحدي مع عدم المعارضة

والمعجزة من الإعجاز، وهما إثبات العجز في الآخرين، وإظهار ذلك
فيهم مع عدم قدرتهم على معارضة تلك المعجزة التي تُخَداهم بها صاحب
الرسالة ووقوفهم أمامها مشدوهين مسلمين بها أو متبرعين عليها وذلك أمر
تتفاوت فيه العقول، ومحار فيه الأفهام، وتظهر قيمة التحدي إذا كان في أمر
يحسه المقصودون بهذا التحدي، وهم فيه باع طويل من النبوغ والعرقية.

ولذلك ترى أيا القارئ الكريم، أن معجزة كل نبي أنت فيها نبغي فيه
قوم وأمه وشهروا به بين الأمم الأخرى حتى صار هذا الفن سمحة لهم وعلامة
على علو أقدامهم فيه فأربعت عقائدهم بها جادة به قرأتهم، وتفوقت فيه
عقولهم.. فكانت معجزة إبراهيم عليه السلام متعلقة بالكواكب والنجوم
بتفرق قومه في علم الفلك والتنجيم، وجاء موسى عليه السلام بإبطال السحر
مستعما الفصا التي تهمت حياتهم وتعاونهم، وتخدت قدراتهم الحارة؟
فعلما أن هذه القدرة ليست من جنس قدراتهم فخروا الله ساجدين.

وجاء عيسى عليه السلام يحمل بين طياته قدرات طيبة خارقة تبرئ الأكراه
والأبرص وتحيي الموتى بإذن الله، ومعجزات نبوية تنبيهم بها يأكلون وما

136
يدخرون في بيوتهم، وبشارته سياوية تغبرهم بنى يأتي من بعده اسمه أحمد ووقتئا أمام هذه القدرات مشدومين.. وكيف لا يتحورون وهم أساطين الطب وحالة البشرية من العلل والآفات.

إن الذي جاء به هذا الفتى الإسرائيلي ليس من لون طبهم ولا طعمه ولا رأيته.. إن طبه قائم على العلم الجغرافي، وطب عيسى قائم على قوى خفية تتحرك سائر المعارف والعلوم، ولا نظروا في بداية علموا أن بداية كبشر ليس من نوع بداية البشرية، فقد علموا أن آدم وحواء كان هم مثل بداية عيسى عن طريق الكتب والأخبار، ولكنهم عانوا بداية عيسى بولادته من غير أب فكان ذلك خرقا لتواميس الكون من وجود الأبن من آب وأم..

وعندما وقفوا أمام هذا المشهد الكوني الوحيد لم يكنوا إلا التسليم بقدرة الله، ثم لم يثبت هذا العلم في الأرض حتى فاجأهم بنهاية كانت أشد عليهم من البداية.. فظن بعضهم أنه قد صلب، وتأكد البعض الآخر بأنه قد رفع.. وشكك كثيرون في خروجه للحياة مرة ثانية بعد الممات.. وكانت فتنة.. آمن في ظلها من آمن وكثير من كفر، وما زال الناس إلى يومنا هذا في انتظار معجزة تعيد المسيح إلى الدنيا.. وتكون علامة من علامات الساعة الكبرى، فينزل في الناس حكما عدل يكسر الصليب ويقتل الخنزير.. ويقضي على النجال، ويجبر بالشريعة الإسلامية لا يصفه نبيا، فقد تم رسالتهم برفعة ولكن باعتباره واحدا من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يجدد فيهم الإسلام ويعمهم فيهم الإيمان. .. وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليه شهيداً (1).

أما معجزة هذا النبي الخاتم، والرسول الحاكم، والمبعوث للعالم فقد

(1) النساء: 159.
كانت معجزتة هي نفس منهج لا يفترقان، فالمنهج حارس آمن على المعجزة، والمعجزة داخلة في إطار المنهج. هذه المعجزة الفعلية نقلت على ملوك الفصحاء والبيان، وأباطرة الشعر والنظر في كل زمان ومكان، وخبراء القياس، والعياقة والعرفة والكبهانة والفراسة في بنى الإنسان، وأبطال الفروسية، وفرسان الحرب في كل مكان - يمكرون من الحضارات أعرقها، ومن الثقافات أضواءها وأشرقتها... وليس ذلك بدعا من القول فإن معجزة القرآن التي نزلت بمختلف الفنون سبقتها معجزات من جنس من نزلت عليهم في الأمم السابقة.

يقول الدكتور ناصر الدين الأسد: "إن العرب كانوا يكتبون في جاهلتهم ثلاثة قرون على أقل تقدير. هذا الخط الذي عرفه بعد ذلك المسلمون" (1).

ومع هذه المهارة في الكتابة جاءهم النبي الأمى بكتابة المصحف على غير ما ألفوه من الكتابة ليبين لهم الإعجاز في كتابته كأعجزهم ببلاغته وفضاحته. فرسم لهم بعض الكليات بحرف زائدة ليبين لهم أن زيادة المبنى في الكلمة تدل على زيادة المعنى فيها ومن ذلك مثلاً: زيادة الحرف لا وهي للنفي في القسم الذي يراد به الإثبات لإفادة أن المقسم عليه بلغ من قوة تتوته درجة لا يحتاج منها إلى إثبات فيكون قوله تعالى: ( لا أقسم ) في بعض الآيات للدلالة على ذلك.

ومن ذلك قوله تعالى: "فقليلًا ما تذكرون"، "فقليلًا ما تشكرون" في سورة الأعراف، "زيادة الحرف ما" دلت على أن القلة في الذكر والشكر قزمة من عدم حتى لا يكاد يذكر الذكر والشكر.

(1) أنظر كتابة القرآن الكريم للدكتور حمودة محمد داوود الأسماح بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بالقاهرة.
كما جاء في سورة الأعراف أيضا الحرف لا زائدًا في قوله تعالى لإلياس: 
ما منك إلا تسجد إذ أمرتك و في سورة س: ( ما منك أن تسجد ) بدون لا فعدم وجوده في سورة س دل على امتتان السجود من جهة المعنى، وفي سورة الأعراف دلت زيادة الحرف لا على الانتفاع معنويًا وماديًا أي بطريقة الخط المصحفي ليصير امتتان إلياس أمام شاهده عدل وهما المعنى والكتابة وقد قيل: "شاهدك قاتلاك".
وفي سورة الكهف: "سأبتئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا"، وفي الآية الأخرى من نفس السورة: "سأبتئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا".
الأية الأولى بالتفاوت، والثانية بحذفها، فالأولى فيها بعض النقل على اللسان لتصوير الحالة النفسية التي كان عليها موسى عليه السلام قبل معرفته تأويل ما فعله العبد الصالح وهو الخضر عليه السلام، فإذا علم تأويل الثلاثة: خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، وزال ما بنفسه من اللبس والجموش جاء التعبير في الآية الثانية بدون التأويل (تقطع) فعبر اللغز عن سرور موسى واغتباطه بحالة الوضيح بعد ضقه بحالة الغموض. وهذا من إعجاز الإيجاز. والأمثلة على ذلك كثيرة (1).

(1) المرجع السابق.
 وإذا يمتم وجهك شطر التفسير القرآني ظهرت لك مذاهب متعددة، ومناهج متنوعة، ومشرب منى فنّدقاً عقيدتا أهل السنة والجماعة من خلال تفسير أهل السنة وتطلع على آراء المعترفة من خلال ما كتبه في تفسيراتهم. وتضع على معتقدات الشيعة المتطرفين من بطون أمهات كتبهم.

فمن كتب أهل السنة والجماعة كتاب قيم يكاد يكون أعظم التفسير انتشاراً لاختصار عبارته وسهولتها. هذا الكتاب هو تفسير الجلالين، الجلال السيوطي والجلال المخلل رضي الله عنها.

وأما تفسير البيضاوي فهو كتاب جميل دقيقة يجمع لك بين التفسير المثير والتأويل القائم على قانون اللغة العربية كما يقرر لك الأدلة على أصول أهل السنة. ويتحم لك كل سورة بما يروى في فضلها من الأحاديث النبوية الشريفة.

وهناك تفسير يستهويك حسن تعبيره، ويرفظك سلامة تفكيره. ينال لك بلاغة القرآن ويوثقك على أسرار الإعجاز بعيداً عن الحشو والتطويل. إنه تفسير أبي السعود.

وأما تفسير النسبي فلندع القول لصاحب كشف الظنون يقول: هو كتاب.
وسط في التأويلات، جامع لوجو الإعراب والقراءات متضمن لدقات البديع والإشرات، مرسح لأقوال أهل السنة والجماعة، خال من أبيض أهل البعد والضلال، ليس بالطول المكر، ولا القصير المخل أه (1).

وأما تفسير الخطيب فهو كتاب عظيم يتناول اثاثي: تقرير الأدلة وتوحجه، والكلام على المناسبات بين السور والأيات، وسرد كثير من القصص والروايات.

وأما تفسير الخازن فهو تفسير مشهور يعنى بالمثود، ولا ينتهي بالسند.

يروسع في القصص والروايات، لكنه ينتج القصة بيان ما فيها من باطل حتى لا يندفع بها غر، ولا يغتر بها جاهل.

تفاسير متطرفة
المعزلة

وإليك منها نموذجين: أحدهما لصاحب الكشاف: عمود الزمخشري، والآخر تنزه القرآن عن المطاعن لشيخ المعزلة القاضي عبد الجبار.

أما الكشاف فيغد من خير الكتب إذا نظرنا إلى التفسير من الناحية البلاغية، رغم نزعته الإعتزالية وتعاد أغلب التفسير التي جاءت بعده عيانا عليه وهو كتاب خال من الخشوع والتطويل، بعيد عن القصص الإسرائيلية يظهر لك المعاني على لغة العرب وأساليبهم، لا يفوت عن الإعجاز القرآن من خلال ألوان البلاغة بفروعها من البيان والمعاني والحديث، ويشوق للقراءة ويدفعه إنتبهك بطرق السؤال والجواب، لكنه يقرر فيه عقيدة القول بين

(1) كشف الظنون لحاجي خليفة

١٤١
المشردين، فإن أفعال العباد مخلوقة ووجب الصلاح والأصالح، كا يقول
باستحالة رؤية الله تعالى في الدار الآخرة إلى غير ذلك مما يقول به شيوخه.
انظر إليه عند تفسير قوله تعالى: izing يؤمن بالغيب يقول: (إذا
قتل) ما الإيان الصحيح (قلت) أن يعتقد الحق ويعرف عنه بلسانه
ويسدله به عمله. فمن أهل الإعتقداد وإن شهد وعمل فهو منافق، ومن
أهل بالشهادة فهو كافر، ومن أهل بالعمل فهو فاسق. أليس ذلك
التفسير هو القول بالمنزلة بين المشردين؟ وهى منزلة الفاسق بين المؤمن والكافر؟
وعند قوله: (واما ركناهم ينفون) يوجه تفسيره إلى أن الزرق الحلال من
المشردين، الزرق الحلال من العبد كا أنه يعرض بإرادة رؤية الله تعالى في مثل قوله
فمن الزرق عن النار وأدخل الجنة فقد قفز في سورة آل عمران كما يصرح
بالإنكار في سورة الأنعام عند قوله تعالى: (لا تدرك الأبرار وهو يدرك
الأبرار) ويفتتح التوفيق في التفريق بين الرؤية والإدراك ويدور حول نفسه في
أن الأبرار تتعلق بها كأن في جهة أصالة أو تبعا وذلك كالأجسام والهويات،
ويدعى أن الله تعالى منزه عن أن يصبر أحد. ولو أنه اسم وهو النحو
البلاغى الفعل: نظر، إذا تعدى بنفسه دل على التوقف والإدراك. 
(2) أنظروا تقصص من نوركم قبل ارجاعهم وراكم فالتمساوا نورا فضرب بينهم
بصور له باب بطنه فيه الرحمة وظامه من قبل العذاب (1).
وإذا تعدى بحرف الجر في: دل على التفكير والإدراك أو لم ينظروا في
ملكت السماوات والأرض (2).
وإذا تعدى بحرف الجر إلى: دل على الرؤية المباشرة (3) وجهه يمتد ناضرة
إلى ربنا ناظرة (3).

(1) الجديد: 13. (2) الأعراف: 185. 142
(3) القيامة: 22، 23.

142
للقاضي عبد الجبار بن أحمد الخليل أبي الحسن البغدادي. انتهت إليه
رياسة المعتزلة. توفي في بداية القرن الخامس الهجري.
وكتبته المذكور مرتب عل مسائل تتضمن سؤالا وجوابا ولم تكن همته تفسير
القرآن بقدر ما يهم بتأييد مذهبه ولذلك لم يفسر القرآن كله بل يأتي بالآية من
السورة التي تقدم عقيدة الاعتدالية. ونحن لا نقول برد تراث أصبح من
مقدمات هذه الأمة. والقاعدة العامة تقول: "أي كتاب تقرأ تستفيد".

تفسير الباطنية

وهؤلاء كيا يدل عليهم العنوان يرفضون الأخذ ظاهر القرآن ويقولون: إن
للقرآن ظاهر وباطنا ويستدلون بالآية الكريمة: فضرب بينهم بسور له باب
باطنة فيه الرحمة وظاهرة من قبل العذاب.

وفي هذه الفرق المغالية والمتطرفة:

القرامطة: نسبة إلى حدان قرة، والإيسايلية: نسبة إلى إساعيل أكبر
أولاد جعفر الصادق أو إلى محمد بن إساعيل أو السعيدية الذين يعتقدون أن في
كل سبعة من أهل البيت إما ما يقتدى به أو الحرمية الذين يتوقفون الحرمات

143
ومن تأويلاتهم الفاسدة يقولون في تفسير قوله تعالى: "ворث سليمان داود" إن الإمام علياً ورث النبي في علمه ويقولون: إن الكعبة هي النبي صلى الله عليه وسلم والباب على والصفا هو النبي والمروة عليه ونار إبراهيم هي غضب النمرود عليه لا تلك النار التي أشعثها لاحراقه فنار أمر معنوي لا حقيقي، وعصا موسى هي حجته في إقناع الأتباع لا تلك المذكورة بأنها معجزة خارقة تحولت إلى حياة التهمت عصى سحرة فرعون إلى غير ذلك من الخرافات التي لا يقبلها عقل ولا يؤيدها نقل.

تفاسير الشيعة

طائفة كبيرة باللغة في حب الإمام علي وبنيه، وأسرفوا في اعتقادهم فيه فمنهم الخلاة و كثير منهم معتدلون ومن هذه التفاسير:
مرأة الأشرار ومشكاة الأسرار.

أما صاحبه فهو المولى عبد الله التليفي الكازناني من النجفي وهو تفسير يشتمل على تأويلات لا تختلف كثيرًا عن تأويلات الباطنية، فال든지يف يفسرها بالذين تارة وبالأنثمة تارة أخرى، وبالقلوب أحيانا وبأحكام الأمام الماضية فعنده قول تعالى: "فلم تكن أرض الله واسعة فتهجروا فيها".

التفسير الإشارة

من أهم كتب تفسير النيسابوري والألوسي والتنستري وابن عربي ولطائف الإشارات للقشيري.

وأيضاً، هذا اللون من التفسير منه قوم وأجازه آخرون، لأنه لم يكن تفسيراً.

(17) الناس : 97

144
بالمعنى المتعارف عليه كا هو موجيد ومعان تطرا على القلوب المشغولة بذكر الله يجدونها عند التلاوة. أما المانعون فقد تعصبوا حتى كفروا بعضهم بهذته التأويلات، وأما المجيزون فقد وضعوا شروطا للتفسير الإشاعي القبول منها:

- ألا يتناق و ما يظهر من معنى النظام القرآني الكريم.
- ألا يدعي أن هذا هو المراد وحده دون الظاهر.
- ألا يكون تأويلا بعيدا كقول بعضهم في قوله تعالى: ﴿و إن الله لم نحسين﴾ مع فعل ماض والمحسنين مفعولة.
- ألا يكون له معارض شرعي أو عقلي.
- أن يكون له شاهد شرعي يؤدبه.
ثم ظهرت مدارس في عصرنا الحديث بعضها معتدل وأكثرها متطرف لعدم توفر شروط المفسر فيهم. وقبل أن أوضح الشروط التي وضعها العلماء فيمن يصلح لتناول هذا الكتاب الكريم بالتفصيل أحب أن أنوه بفضل بعض المحدثين الذين كان لهم فضل كبير في تطبيق التفسير المتقدم من الإسرائيليات والتصدى للدخلاء على الفكر الإسلامي وضمه في أقداس مقدساته ومن هؤلاء الفضلاء الإمام محمد عبده الذي أدرك أن أمضى سلاح للإسلام هو القرآن العظيم فلا بد من تناوله بالشرح النظيف والتفصيل النقي وجلائمه من صدأ بدع التفسير وجدوته، فإن عصر العلم الذي غزا العقول في العصر الحديث يحتاج إلى دورة موضوعية جديدة لهذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فلا منع من تجلي أسراره بالأساليب الأدبية والتحليل الفلسفي دونها غلو أو تفريط بل يكون بين ذلك قرآناً. وإذا أردت أن تعرف منهج هذا الإمام الثائر المجد فعليك بتفسير جزء عم وهو الجزء الأخير من القرآن الكريم وفي سورة الفلك من هذا التفسير إليها القارئ الكريم ما يشفى غلبيك نحو قضايا السحر والنفثات في العقد وتأثير السحر في النبي صلى الله عليه وسلم، وهل أثر في بدنه أو في عقله. وأقول أهل البدع في ذلك. ولا يفوتك الاطلاع على تفسير الجواهر الذي ألفه المغفور له الشيخ

146
طرحه وجعل الجنة منقلبه ومثواه .

١٤٧
وسأستعرض تقديم كتابه من أخيه محمد قطب الذي قال: الكتاب الذي
عاشه صاحبه بروحه وفكره وشعره وكيانه كله عاشه لحظة لحظة ولحظة لحظة
وطرفة فكرة وأدعيه خلاصة تجربته الحية في عالم الإياب.
لقد آن له أن يأخذ وضعه الطبيعي في يد ناشر آمن يقدر أنه ناشر فكر قبل
أن يكون جامع مال ...
إن هذه الكلمات من التقديم قد وافقت هوى في نفسي وتلقت مع ما
يحيش به صدرى نحو المؤلف والناعنر رحم الله المؤلف ومد في عمر الناشر
وذريته وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.
علي من يفسر كتاب الله تعالى أن يبحث عن تفسيره في القرآن فإنه يفسر
بعضه بعضًا فإن لم يجد فليطلبه في مظاهره في كتب السنة الصحيحة لأن السنة
إلا جاءت مفسرة لما استعمج على أفهام الناس موضحة لما نفهم مبينة لما
استغلق، فإن تعسر عليه ذلك يبحث في أقوال الصحابة والتابعين فإن لم يجد
فليجهد رأيه ولا يألو أي لا يقصر إذا كان مستكملًا لأدوات الاجتهاد مع

القواعد الآتية:

1- العناية بأسباب النزول لأنها تعين على فهم المراد من الآية.

2- ذكر المناسبات بين الآيات لأن في ذلك إفساح عن أخص عناصر القرآن
الكريم وهي الإعجاز.

3- مراعاة السياق والسباق.

4- التجرد من الميل والهواء حتى لا يحمله ذلك على تفسير القرآن حسب رأيه
ومذهبه.

5- مراعاة المعاني الحقيقية والمجازية.

6- تقديم الحقيقة الشرعية والعرفة على الحقيقة اللغوية.

7- مراعاة الفروق الدقيقة بين الألفاظ.

١٤٩
8 - البدء في التفسير بها يتعلق بالقردات وتحقيق معانيها والكلام عليها بحسب التركيب فيبدأ بالإعراب إن كان خفيا ثم ما يتعلق بالمعنى ثم البيان ثم البديع وهي العلوم البلاغية.. ثم يستنبط المعنى المراد من الآيات من الأحكام والآداب مع الاقتصاد في ذلك كله حتى لا يخرج عن قضية التفسير كنا بينا آنفا.

9 - بعد عن ذكر الأحاديث والآثار الضعيفة فضلا عن الموضوعة، وكذا الروايات المنسوبة.

10 - العلم بالناسخ والمنسوخ والمطلق والمقيد والعام والخاص والمحكم والمتشابه وغير ذلك مما يجعله جديرا بوضعه في قائمة المفسرين الذين هداهم الله فبهذا اقتده.
كان ابن عباس من أعلم الصحابة بتفسير القرآن، قال فيه ابن مسعود:
«نعم ترجم القرآن: ابن عباس، وكانت له مدرسة لها سباعها وخصائصها وأصحاب يقومون بعلمه ويقولون بقوله. ونشروا علمه على أوسّع ما يكون النشر. قال الأعمش: استخلف الإمام على عبد الله ابن عباس على الموسم فخطب الناس فقرأ في خطبته سورة البقرة، وفي رواية: سورة النور، ففسّرها تفسيرًا لسمعته الروم والترك والديلم لأسلموا (1).»

وقد ورد عن ابن عباس في تفسير القرآن ما لا يُحصى كثرة، ورويت عنه من طرق كثيرة، وفيها الصحيح والحسن والضعيف، بل والوضيع شيء كثير. وأما التفسير المطروح المنسوب إليه ففي صحة تسبّبه إليه شكل كثير!

(1) مقدمة إلى أصول التفسير لأبن تيمية.
من أجل التفسير بالمأثور، وأعظمها قدرًا، ذكر فيه ما روى في التفسير عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين وأتباعهم، وقد كانت التفسير قبل ابن جبريل لا تذكر إلا الروايات دون التعليق عليها أو المساس بها، حتى جاء ابن جبريل فزاد على الروايات توجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض، وذكر أوجه الإعراب واستشهد بأشعار العرب على معاني الألفاظ.
وقد أثني على هذا التفسير الإمام النووى فقال في تذكيره: ١٠٠. وكتب ابن جبريل لم يصنف أحد مثله وقال ابن تيمية: هو من أجل التفسير وأعظمها قدرًا ١(
قلت: المأخوذ عليه: أنه يذكر الروايات من غير بيان وتخصيص، فلا تميز لصحيحها من ضعيفها بل هناك الروايات الواهبة والمنكرة والإسرائيليات. وفي قصص الأنبياء وقصة زواج السيدة زينب بنت حشش من النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير ابن جبريل ما يرفع القارئ المؤمن ويجعله يرحم بطلان أمثال هذه التخريج والتحريف.

(١) الإفتقار للسيوي ١٠٠ / ١٧٨ ١٩٠. ١٥٢
تفسير ابن كثير

ومؤلفه هو الحافظ أبو الندى إسحاق بن كثير القرشي، من أخلص تلاميذ ابن تيمية، ومن أكثر الناس افتخارا بحبه وأشدهم اتباعا له، أخذ عنه الكثير من آرائه الفقهية والتفسيرية حتى كان يفتى برأيه في مسألة الطلاق الثلاث بلفظ واحد. ولابن كثير كتاب البداية والنهاية، أما البداية ففي التاريخ وقد تناول فيه من المسائل التاريخية ما يجعله من صدور المؤرخين، وأما النهاية ففي الحديث وقد كتب فيه من الروايات التي كان يملأها على تلاميذه ويكتبها من ذاكرته ما يجعله على رأس قائمة المحدثين، ويكفيه من ثمان أهل الحديث عليه ما أطلقوا بأنه الحافظ المتقن المحدث البازع الفقيه المفسر العظيم لكتابه المسمى تفسير القرآن العظيم،نهبه على الإسرائيليات والموضوعات في التفسير، وحذر منها، وقد كان له بهذا الفضل كثير من المفسرين من أمثال الألوسي، ومحمد عبده ورشيد رضا رحمهم الله تعالى.
لاهتمام فخر الدين محمد بن العلامة ضياء الدين عمر الرازي، ولد في أواخر القرن السادس الهجري بمدينة الری، وإلى نسبه وصديق مدينته قرب طهران عاصمة إيران كان عالمًا بالأصول: الكتاب وال سنة وكان من كبار علماء الكلام، سلك في تفسيره مسلك الحكماء الإثنيين، فصار أديبه في مباحث الإثنيات (1) على نمط استدلالاتهم العقلية، ولكن مع تبددها بها يوافق أصول أهل السنة والجماعة، وعرض لأراء هؤلاء الفلسفة في قوهم بفهم العالم وإنكار البحث بالجسد وغير ذلك، وفنى شبههم ونقضهما في مواضيع شتى من كتابه، ويكاد هذا الكتاب أن يغلب من الإسرائيليات، فإن ذكرها فيصد إبطالها. وقد أراد بمنهجه ذلك أن بين تفوق الحكماء القرآنية على سائر الطرق الفلسفية وانفراد القرآن بداية العقول البشرية.

(1) الإثنيات: الأمور التي تتعلق بلائدة الإله سبحانه وتعالى وصفاته، كما أن النبوات هي الأمر التي تتعلق بلائدة الإنسانية وخصائصهم وسبيل إرسالهم وغير ذلك، وأما السمعيات فهي التي تتعلق بالأمور الغيبية كالمبارة والنار وعلاب القبر أهـ.
لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الخزرجي
الأندلسي القرطبي المفسر. يعد تفسيره من أصول التفسير وأعظمهم نفياً.
سقط منه القصص والتاريخ، وذكر عرضها عنها أحكام القرآن بتوسّع حتى
حاف بها على التفسير، ومن محسن هذا الكتاب الجليل تختت الأحاديث
وعزوها إلى الأئمة من الرواة مبتدأً عن الإسرائيليات والموضوعات التي تخل
بعصمة الملائكة والأنبياء أو يخل بالاعتقاد فإن تعرض إليها أبطلها ودحض
شبهها بصائب الرأي ونور البصيرة، غير أنه لم يسلم كثيره من سبقوه من
بعض الإسرائيليات التي لا تصح، في مثل قصة ذي القرنين على قوله تعالى
في سورة يوسف: ﴿وَلَقَدْ هَمِتْ بِهَا لُوطٌ أَنْ رَأَى بَرَحَانٍ رَبِّهِ﴾ وقيل:
عند هذه الآية أحب تأثّر القارئ الكريم وهي أن في عرض الآية تقديم
وتأخير ﴿وَلَقَدْ هَمِتْ بِهَا﴾ ولو أن رأى برهان ربه لهم بها، وقد رأى برهان ربه
ولا فاستحال أن يهم بها ومن المعلوم أن ﴿لُوط﴾ عند النحوين حرف امتناع
لوجود فتى وجد البرهان امتنعهم. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى إذا
سلمنا بأهم فقد هم به تطلب الفاحشة وهم بها ليضربوا حتى تكف عن
طلبهما. ولهان ضرب الملكة وهو في يمها للحقه السوء بسبب إهانته لها...
ويا أن الضمير في اللغة يعود على أقرب مذكر فقد قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّلِكَ﴾
لنصرف عنه السوء ويتفضل الحق سبحانه بصرف الفحشاء عنها بيركة نبيه وحبيبه يوسف عليه السلام، فكان سبحانه وتعالى قال: "فذلك لنصرف عنه السوء وعنه نصرف الفحشاء لما كان تكرار حرف العلجر "عن" هذا لا يعد قوله بلتاري فقد اكتفى سبحانه بذكر الأول واستغني عن الثاني لأن القاعدة تقول: حلف ما يعلم جائر. وفه القصة خط درامي غير متناقض. ومن نعيب على كاتب القصة، فإن تنافض في خط الدرامي يكون ذلك من أسباب ضعف الكاتب، وهو المخلوق فهل يتناقض الخالق واهب العقول سبحانه مع خطه الدرامي في نهاية القصة وأمثالما في القرآن الكريم وهو الذي صدر هذه السورة بقوله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: "نحن نقص عليك أحسن الكصص بآوحينا إليك هذا القرآن" وإليك نموذجاً من الخط الدرامي المستقيم في هذه القصة:

زليخا: هيت لك.

يوسف: معاذ الله إنه ربى أحسن مثواي إنه لا يقلح الناظمون.

زليخا: همت به (فاحشة).

يوسف: هم بها (ليمنعها من هذا الطلب) ليحقق قوله: معاذ الله.

زليخا: قدت القميص.

يوسف: قد قميصه من دبر وهو دليل على الهروب لا على الإقدام على منكر الفعل.

(ويدخل العزيز وبعض أهلها ويقتف)

الشاهد: إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين.

156
العزيز: إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم.
(ويستمر العزيز في الحديث)

يوسف: أعرض عن هذا
(ثم يوجه الكلام لزوجته)
واستغفرى لذنبك إن كنت من الخاطفين
ألمنة الخلق أفلام الحق
ويشيع هذا الأمر بين بنات جنسها.

وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسها قد شغفها حبا إنه لنراها في ضلال مبين.

اختبار صعب

يوسف: رب السجن أحبت ما يدعوني إليه.

شهادة

الناس: (ما أعلمنا عليه من سوء) والمحذوف: كيف تصدرب منه الفحشاء؟

الاعتراف سيد الأدلة
زليخا: الآن حصص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ذلك
لعلم أنى لم أخطه بالغيث وأن الله لا يهدى كيد الخائنين وما أبرى
نفسى إن النفس لأمارة بالسوء. إن ما رجح ربي.

آل: في النفس هل هي لاستغراق الجنس أي جميع النفس البشرية أو للعهد
أي هذه النفس المعهودة الخاصة بالسيدة زليخا. الواقع أن السياق
القرآني والسياق لهذه الآية يفيد أنها للعهد، وإن كان ذلك لا يمنع من
استغراقها جنس النفس البشرية. تسألني ولما لا يكون القول:

107
( وما أبري نفسي على لسان يوسف وليس على لسان زليخا؟ أقول لك :
لأنها في معرض سر القدرة والاعتراف بخطيئتها ... أما نفس يوسف فهي
نفس صديقية بدليل مطابقة الله تعالى إياه: ( يوسف أيها الصديق).
وشتان بين النفس الأمارة التي من أفرادها زليخا والنفس الصديقية التي من
أفرادها يوسف عليه السلام وما دمنا قد تعرضنا لذكر النفس البشرية فإليك ما
ذكره صاحب تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب العارف الكردي رضي الله
تعال عليه ... قال:
ولنفس باعتبار تأثرها بالمجاهدات سبع مراتب:
الأولى: النفس الأمارة: وهي التي تميل إلى الطبيعة الدنيوية وتتأمر باللذات
والشهوات المتعددة شرعا وتذهب القلب إلى الجهل السفلي فهي مأوى الشرور
ومنع الأخلاق الدميمة كالكفر والحرص والشهوة والحسد والغضب والبخل
والحقد.
الثانية: النفس اللوامة: وهي التي تتورط بئر القلب فتطغى القوة العاقلة
تارة وتعصى أخرى ثم تنرم فتولم نفسها وهي منيع الندم لأنها مبدأ الهوى
والعزة والحرص.
الثالثة: النفس المطمئة: وهي التي تتورط بئر القلب حتى تخترع عن
صفنها الدمية واطمأنت إلى الكحالات ومقدامها مبدأ الكمال حتى وضع
السلاك قدمه فيه عد من أهل الطريق لانطلاقهم من التلوين إلى التمكين
وصاحب سكارات هبت عليه نسبات الوصول يطأطبال الناس وهو عنهم في بعد
من شدة تعقله بالحق تعالى.
الرابعة: النفس الملهمة: وهي التي أهلها الله التوابع والقناعة والعلم
والسخاوة فلذا كانت منيع الصبر والتحمل والشكر.

١٥٨
الخامسة: النفس الراضية: وهي التي رضيت عن الله تعالى كـ قال:

(ورضا عنه) وstration السليم.

السادسة: النفس المرضية: وهي التي رضى الله عنها ويظهر فيها أثر رضاه تعالى وهو الكرامة والإخلاص والذكر، وفي هذه المرتبة يضع الساكن إلى الله تعالى ] القدم الأول في معرفته سبحانه حق المعرفة وفيها يظهر تجلى الأفعال.

السابعة: النفس الكاملة: وهي التي صارت الكهالات لها طبها وسجية ومع ذلك تترقى في الكهال وتؤمر بالرجوع إلى العباد لإرشادهم وتمكيلهم ومقامها مقام تجلات الأسماء والصفات وحاها البقاء بالله تعالى لله وتراجع من الله إلى الله ليس لها ما أخرى سواء. علومها مستفادة من الله عز وجل (1) آهـ

(1) توضير الصلوب في معاملة علام للغريب للعارف الكردي فصل في النفس.

109
لا تعجب أليا القارئ الكريم إن قرأت هذا التفسير فوجدت عنوان الكتاب مطابقا لمضمونه فاسم هذا التفسير «المحرر الوحيز» وهو محرر لأن دفع الشبه والضلالات وخلص الحقائق وحرر ما هو عتاز إلى التحرير والدقة، وقد نوه بذلك في مقدمة كتابه الذي لم يطبع منه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سوى جزءين، وإن كان قد طبع طبعة كاملة بالمغرب حيث موطنه هذا العالم الجليل، وهو وجيز بالنسبة إلى التفسير الذي سبقته، فهو كتاب أجمع وأخلص كأ يقولون ويقوم منهج هذا التفسير على:

- الجمع في التفسير بين المأثور والرأي.
- الاتجاه بالتفسير إلى اللغة والنحو.
- نظرته الصادقة في توجيه القراءات المستعملة والشاذة.
- أسلوبه العلمي في عرض الأحكام الفقهية.
- حيثلته وحذره في الأخذ بالإسرائيليات.
- رأيه في إعجاز القرآن الكريم.
- إقلاله من الأسرار البلاغية في تفسيره.

كما يتميز هذا التفسير بمعالجة مسائل الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة ومناصرة المذهب السنى على المذهب الاعتزال.

١٦٠
وهو منهج يعمد فيه المفسر أولاً إلى جمع الآيات التي وردت في موضوع واحد ثم يضعها أمامه كمواد يحللها ويقفه معانيها ويعرف النسبة بين بعضها ويبين فينجلي له الحكم ويبين مرماها، وبذلك يضع كل شيء موضوعه، ولا يكره آية على معنى لا تريد، كما لا يغفل عن مزيج من مزایا الصوغ الإلهي الحكيم، وربما لم تكن حاجة الناس إلى هذا النوع من التفسير ضرورية وملحة.

في العصور السابقة قد ما هي كذلك في عصرنا الحاضر، خاصة ذلك النوع الذي يراد إذاعته على الناس بقصد إرشادهم إلى ما تضمنه القرآن الكريم من أنواع الهداية، وإلى أن موضوعات القرآن الكريم ليست نظريات يشتغل بها الناس من غير أن يكون لها مثل واقعية فيها يحدث للأفراد والجماعات وما يتصل بحياتهم من أوضاع وشئون.

وقد قام محمد الغزالي بمحاولة رائدة نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم كتب منه الأجزاء العشرة الأولى في مجلد واحد تولت طبعه دار الشرق ويقول في مقدمته:

والهدف الذي سعيت إليه أن أقدم تفسيراً موضوعياً لكل سورة من الكتاب المعزز.

161
ويوضح الأستاذ الغزالي الفرق بين التفسير الموضوعي والتفسير الموضوعي
قال:
أما التفسير الموضوعي فيتناول الآية أو الطائفة من الآيات فيشرح الألفاظ والتركيب والأحكام.
أما التفسير الموضوعي فهو يتناول السورة كلها يحاول رسم صورة شمسية لها تتناول أولاً وأخرها وتتعرف على الروابط الخفية التي تبدأها كلها وتجعل أولاً تمهيدًا وآخرها تصديقًا لأولًا.
وكم كنت أمنى أن يكون التفسير الموضوعي لا يقتصر على السورة وحدها كما بات، وإنما يتناول قضية من القضايا التي ذكرها القرآن سواء فيها يتعلق بالعقيدة أو المعاملات أو الأخلاقيات. ثم يأتي بجميع الآيات التي وردت في جميع السور متناولة هذه القضية في وحدة شاملة جامعة متكاملة مربطة بعضها ببعض يتعلق المطلق بالقيد والخاص بالعام والمحكم بالمشابه والمفصل بالجمل في غير تناقض ولا اختلاف، وهنا ينجلي الفرق بين اختلاف التنوع واختلاف التناقض والتصاد الذي ينتجه عنه القرآن الكريم ويكمم أفواه الحاقد من الذين لحقت ألسنتهم العجمة وحق قلوبهم الاعوجاج. والله أعلم.

(1) مقدمة نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم للغزالي.
محمد بن جرير بن يزيد الإمام أبو جعفر الطبري البغدادي أحد الأعلام 
صاحب التفسير والتاريخ والتصانيف، ولد بآمل طبرستان سنة أربع 
عشرين ومائتين، ورحل إلى طلب العلم وله عشرون سنة. قال الداني عنه: 
إنه صنف كتاباً في القراءات سهاء الجامع، وقال الخطيب: كان أحد أهمة 
العلم يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضلته. كان حافظًا لكتاب الله 
عارفاً بالقراءات بصيراً بالمعنى فقيهاً في أحكام القرآن عالماً بالسنن وطرقها 
صحيحها وسقيها، ناسخها ومنسوخها عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين 
عارفاً بأيام الناس وأخبارهم، وله كتاب تدليبه الآثار لم أر مثله في مساحته 
لم يشبه، وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة واختيار من أفكار الفقهاء. 
وتفرد بمسائل حفظته عنده.

قال أبو حامد الإسفرايني إمام الشافعية: لو سافر رجل إلى الصين حتى 
يحصل على تفسير ابن جرير لم يكن كثيراً.

توفي سنة عشرين وثلاثين، ودفن يوم الأحد وقت الظهر لسبعين من شوال 
رحمه الله.

(1) غاية النهاية في طبقات القراء 2/108 عدد زبيدي 2886.
الطبري

هو الشيخ أبو عثمان الفضل بن الحسن الطبري من أكابر علماء الشيعة الإمامية في القرن السادس، صاحب تفسير مجمع البيان في تفسير القرآن، وذلك السفر الجليل الغزير المادة الجمل الفائدة، أقام مؤلفه مباحثه على مواضيع سبعة، افتتح كل منها بآية قرآنية أو أكثر مع رقم عددها، ثم ثنى بالموضوع يبحث عنوانا فعنوانا: القراءة، فالحجة، فاللغة، فالنظم، فسبب النزول، فالاعراب، فالمعنى: التفسير.

التفسير عنده لم يكن لقوم دون قوم، أو مذهب دون مذهب كي يفعل جمهر المفسرين، وإنما كان تفسيره للمسلمين عامة، بجميع مذاهبهم ومشاربهم، فهني مع مكانه من التشريع وإخلاصه لله تعالى في الولاء للعترة الطاهرة، لم يقتصر في نقل الأثر من التفسير عن أئمة أهل البيت خصوصا بل نقل عن غيرهم كما نقل عنهم، يورد الأثر عنهم من غير تعرض لندق من تصحيح أو تضعيف بل يترك الحكم لأهل العلم من القراء.

يقول عن نفسه رضي الله عنه: كنت في عهد ربعان الشباب وحداثة السن وريان العيش وضرورة الغصن كثير التزاع فقلت التشغف، شديد التشغف إلى جمع كتاب في التفسير يتظم أسرار النحو اللطيفة، ومع اللغة الشرفية، 164
ويهى موارد القراءات من متوجهاتها مع بيان حجمها الواردダ من جميع جهاتها، ويجمع جوامع البيان في المعاني المستفيدة من معادها، المستخرجة من كوافها إلى غير ذلك من علومه الجملة، فاستخرى الله تعالى، وشمرت عن ساق الجد وبدلت غاية الجهاد والعد، وأسهرت النظر، وانعبت الخاطر، وأطلت التفكير، وأحضرت التفاسير، واستمدت من الله التوفيق والتسير، وابتدأت بكتاب في غاية التلخيص والتهذيب، وحسن النظم والترتيب بجميع أنواع هذا العلم وفنونه، ويجوى قصصه وعيونه؛ من علم قراءته وإعرابه ولغاته، وغواضبه ومشكلاته، ومعانيه وجهاته، وزوجه وأخباره، وقصصه وآثاره، وحدوده وأحكامه، وحلاه وحرامه، والكلام على مساحة البطالين فيه، وذكر ما ي дерب به أصحابنا رضي الله عنهم من الاستدلالات بما موضوع كثير منه على صحة ما يعتقدونه من الأصول والفراع، والمعقول والمسموع على وجه الاعتدال والابتعاد، فوقع الإيجاز ودون الإكثار وسميه كتاب (جميع البيان لعلوم القرآن)، وأرجو إن شاء الله تعالى كتابا كثير الدور، غزير الغرر، متواصف السمات، متناصف الصفات، سبأ في الأبحار والأغوار طيارا في الأفاق والأقطار، مهدب الترتيب، مذهب التهذيب، أحكام الشرعية بمعانيه منوطا، وأعلام الحقيقة بمبادئ مرتبة، وبحول الله أتعصم، ويزوده وعونه أفتيح وأختتم، وإيام أسال الهداية إلى التي هي أقوم، وما توفيقي إلا بالله عليه تولتك وإليه أنتب.
كما ذكرت،

ومن خلال دراستي المتأنية لكتاب «جميع البيان» لعلامة الطبري،

رأيت أن أقول إن الرجل يراحم أهل السنة من المفسرين إن لم يتفوق عليهم,

بل إنه يميز عنهم بالحيدية الناعمة وعدم التعصب لمذهب أو تشبه، ولكن في العمق، متبنايا له، ولم أر بين من كان الكتاب غلوا أو نظرا أو خروجا على الملف من التفسير بالمثري والمقول، وليس في التأويل شطط أو انحرافاً كا يزعم بعض الناس الذين يكتبون الإتهامات للأبرياء، فإذا طالتهم بالدليل تصلوا منك، وتراوموك، وأحاولك على مراجع لا وجود لها وتركوك حائرًا.

يدخل الكشك فتعادد أناسا قد يكون أحدهم من نفوسهم، وتشتغل في قلبنا نار العدوان والبغضاء ويتم للمضطرين ما يريدون من تفرقة الأمة، وتتشتت سلماً، وعندئذ يرقص الشيطان طرفاً، ويتهالك عجبنا لأنه ممكن من إيقاع العدوان والبغضاء بين أبناء الأمة الواحدة التي وصفها الله بالخيرية في قوله تعالى: "قد تم حي أمة أخرى للناس فلا تحرم نفسك من النظر في كتاب هذه الفرقة التي أوقفت نفسها على حب الله ورسوله وحب أهل بيته، وأفندوا حياتهم في الدفاع عن العزة الظاهرة جزاهم الله عن الله ورسوله وأهل بيته خير الجزاء.

المؤلف
في القرآن عموميات وخصوصيات - فعموميته سائر الآيات وخصوصيته حروف إما مفردة وإما مرتكبة على سبيل الإعجاز وهو نسق عجيب فريد حيث راعى في نظمه الطريقة النفسية والطريقة اللسانية، وكيل ما زاد الفكر البشري تقدماً ووضعاً وبصرة، وسجلت له أحداث الكون وتجاربه نقاطاً جديدة في الخط البيني للعقل الإنساني. أدرك من حقائق القرآن ما لم يدرك من قبل، ولما كان القرآن سجلاً جامعاً ما توقف عليه الهداية من المعارف وحقائق الكون.

ومن أسرار إعجاز هذا القرآن أن معارفه لا تندو ولا تنتهي. فهو مبعث كل بحث أو كشف، لأنه يصدر عن معرفة الخالق العالم القادرين. نزل بحرف قريش الذي استطاع لهجات العرب، واستوعب لغات العجم فهاستمعته قريش من الألفاظ داعر وشاعر وما استهجنته الدائر وضاع: ففي دائرة متسعة، وحلة مستقلة لا بدري أين طرفاها.

نزل القرآن الكريم بسماحة والمدينة في حوالي ثلاث وعشرين سنة منهجاً وفقاً للظروف، وما تطلبه الأحكام ومحتاجه الأ탐اد أبناء الدولة الحديثة التي قوامها الكتاب والسنة في جو بلاغي عظيم تساعر إليه أديب كتاب الوحي. مسجلاً ما نزل من السواء على قلب الأمين بلسان جريج، ثم يلقي المتنى صلح الله عليه وسلم بين الأذان الصاغية والقلوب الوعائية، فتلمد صدورهم وتنسيق أفقتهم، ويدخلون في دين الله أفواجاً، ثم ينهبون للعمل بمحكمته. والإبان بمشابه، واعتراب أمثاله.